Level 1
1000
رواية
مصنع الدمى الشريرة
عمرو البدالي

الكتاب:مصنع الدمى البشرية
المؤلف:عمرو البدالي
تصميم الغلاف: أحمد مسعد
رقم الإيداع: 2023/19485
الترقيم الدولي: 978-977-778-336-1
الطبعة الاولى: 2024

20 عمارات منتصر- الهرم-الجيزة
ت -02-35860372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

مصنع الدُّمى البشريّة

كيوبيدو

-رواية-

عمرو البدالي

-١-

صوت موسيقى ملحميّة تعزفها فرقة خفيّة وسط الصحراء.

على أطراف مدينة برمون -غرب قلعة الطيّنة بالقرب من مدينة تنيس التاريخيّة العريقة في نهاية العام الخامس والثلاثين بعد المائة السادسة ميلادية الموافق ثلاثمائة ثماني وثمانين سنة بعد الألف بالتقويم الروماني - يعوي ذئب شرس جائعًا يبحث عن فريسة لأيام من دون جدوى.. يدرك أن المدينة مقبرة محتملة له ولمن يفكر في مهاجمتها.. نيران مشاعل المصابيح تنبئ بذلك.. وقف مضطربًا خائب الرجاء في نيل طعامًا ليليًّا قبل أن يبتعد ويغيب في الصحراء.. رياح شديدة تكاد تقتلع البيوت تلك الليلة.. شوارع المدينة خالية من سكانها حتى المسرح الرومانيّ ودرجاته الرخاميّة غاب عنها الضجيج المعتاد وتلك الموسيقى التّي تعزفها الفرقة الملكيّة المقيمة بالقرب من المسرح بأمر من الحاكم سيروس اليوناني المُعيّن من قبل إمبراطور بيزنطة واليًا على مصر وبطريرك كنيسة الإسكندرية.. منذ فترة وصلت تلك الفرقة من العاصمة ضمن استعدادات استقبال الحاكم سيروس أو من ينوب عنه في احتفال كبير بمناسبة ترميم كنيسة برمون الكبرى وسط المدينة.

انتهوا من الطريق الممهد وسط القرية حتى المسرح وثبتوا الرخام في أرضيته ونُصبت الأعمدة الجرانيتية في أماكنها واتخذت المدينة زينتها.. حتى نسيمها بات معبئًا برائحة ورود ورياحين زُرعت حول بيوتها ومساكنها في حدائق تفصلهم

عن بعضهم البعض.

لم يتذكر أحد الكنيسة الأخرى الصغيرة وحطامها المهملة على أطراف المدينة الّتي هُدمت على أيدي الفرس في هجومهم الأخير على برمون منذ عقدين من الزمان, ربما لبعدها النسبيّ عن المدينة, فباتت مأوى للذئاب الضالة خاصة أن مساكن العمال العاملين في ميناء برمون بالقرب منها تهدمت هي الأخرى وهجرها سكانها.

مازالت آثار دماء ضحايا الحرب ظاهرة على ما تبقى منها من جدران وعواميد رخاميّة محطمة ملقاة هنا وهناك.. الرياح يشتد تذاؤبها ويمتزج مع عواء الذئب الجائع المبتعد.

قمر يتسلل ضياءه من خلف سحب ركاميّة كثيفة.. شاب في الثلاثين من عمره يقترب متوجسًا ممسكًا بمصباح زيتيّ في يده.. صوت الموسيقى يملأ أذنيه.. يظهر وجهه المضطرب وعينيه الزائغتين.. لا يدرك مصدر تلك الموسيقى أبدًا فمنذ الأمس وهو يستمع لها من دون توقف كأنها تدور داخل رأسه.. في البداية ظن أن الرياح تنقل إلى مسامعه موسيقى الفرقة الملكيّة من المسرح الرومانيّ لكنه تأكد أن المسرح خاوي منذ البارحة بسبب سوء الطقس والبرودة القارصة.. الغريب أن كل من حوله لا يسمعونها كأنه قد جن.

يجرجر قدميّه ويجبرها على المضي نحو تلك المغارة القريبة من حطام الكنيسة في منتصف جبل صخريّ يحاوطها.. يتردد.. يجبر نفسه على الإقتراب.. يهمس:

- هذا هو المكان.

يقف على باب المغارة الجبليّة متوجسًا قبل أن تغلبه شهوته الملتهبة ويسبر أغوار المجهول من أجل تلك الفتاة الساحرة الجمال الّتي قابلها عند البئر الشرقي الليلة الماضيّة.. لوهلة توهم أنها نفس الفتاة الّتي رأها عبر مرآة غرفة الربّان في سفينة والده منذ ليلة واحدة.. وسط عاصفة استثنائية وفوضى مباغتة في طريق عودتهم للميناء رآها.. توقف للحظة واقترب من المرآة.. لم يرى انعكاسه في داخلها بل فتاة جمالها أخاذ تبتسم له ثم اختفت.. ظن أنه مرهق من رحلة الصيد ونسي الأمر.. منذ ذلك الحين وتلك الموسيقى تدور في رأسه.. اقترب من تلك الفتاة الواقفة على البئر.. هل ما يراه حقيقة أم خيال؟ تسائل.. فتاة في ريعان الشباب, رآها من الخلف عارية تستحم بإناء ممتلئ بالمياه عند البئر في هذه الأجواء القارصة البرودة فتسمر مكانه.. ألقى شِباك الصيد الخاصة به أرضًا وتحرك ناحيتها مستكشفًا.. استدارت ناحيته.. رأته.. التقت أعينهما.. فتاة المرآة بكل تأكيد.. لم يدرك عقله تفسيرًا لذلك ولم يحاول أن يفهم بل غرق في سحرها مستسلمًا لأمواج إغراءها المباغت.. كان نصفها العلويّ باديًا له بوضوح ونصفها السفليّ مغطى بملاءة بيضاء شفافة.. ابتسمت.. رفعت شعرها الأسود المجدول المبتلّ بكلتا يديها.. تلألأ نهديها تحت ضوء القمر.. وقع في شباك غرامها من أول نظرة.. اقترب أكثر حتى لامست المياه نعليه.. سقطت الملاءة السفليّة فظهر كامل جسدها الفتاك.. كأن قلبه قفز من بين ضلوعه ليحتضنها ويقبّل كل شبر فيها.. شعر أنه يعرفها منذ

زمن ولكنه لا يتذكر أين رآها من قبل.. لم تكن رؤيته لها في المرآة هي المرة الأولى.. ظن أنه عشق يهديه القدر إليه.. غاصت روحه في عينيها متسائلًا:

- من أنتِ أيتها الجميلة؟ وكيف تستحمين هكذا في ذلك الوقت؟

- أنا ساحرة القلوب.

مدت يدها نحو وجهه وربتت عليه براحتيها.. اقتربت منه.. قبلّته.. ذاق ما لا يتحمله قلب رجل.. قبلة طويلة حررت جيوش رجولته في لحظة واحدة.. ودّ لو يقضى عمره كله بين ذراعيّها.. سألته هامسة:

- ما رأيك في هذه الموسيقى؟

لم يجب.. غرق ثملًا من خمر شفتيها.. مد يده ليحتضنها ولكنها ابتعدت بمجرد أن لمس جسدها.. ابتسمت:

- -ليس هنا.

اتجهت ناحية كومة من الملابس وارتدتها وسط شبقه المتزايد.. التفتت ناحيته مبتسمة قبل أن تبتعد:

- سأنتظرك في المغارة خلف الكنيسة المهدمة على أطراف المدينة.

غابت عن عينيه سريعًا ملقية بسؤاليه عرض الحائط.. بات ليلة صعيبة يحرقه شوق جارف ناحية تلك الفتاة ويثير عقله لغز وجودها في ذلك المكان ليلًا.. تسائل: هل رأها في مرآة

غرفة الربّان حقًا أم كان حلمًا جميلًا؟ لم تهدأ شهوته طوال تلك الليلة وفي اليوم التالي ظل صامتًا طوال اليوم يفكر في تلك الفتاة وليلته معها.. لم ينقطع صوت الموسيقى أبدًا.. عزف متواصل لا ينتهي.. اتخذ قراره بالذهاب لها بعد منتصف الليل.. تأكد من سكون أهل المدينة و خلودهم إلى النوم في ساعة مبكرة هروبًا من شدة البرد.. تهيأ لليلة في جنتها المرتقبة وداعبه حلم العناق في حضرة جمال لم يرى مثيله في حياته.

هلل واقفًا وسط تلك الجدران الصخريّة الصماء:

- أين أنتِ أيتها الساحرة الجميلة؟

حرك مصباحه الزيتيّ حوله في كل مكان مستكشفًا.. لا شيء هنا غير الصخور والجدران.. صاح بأعلى صوته فتردد صداه في المكان:

- أين أنتِ؟

استمع إلى صوت شيء يتحرك.. سلط مصباحه نحو مصدر الصوت.. بالقرب منه غطاء صخري يهتز جانبًا.. صخرة كبيرة تغطي ممرًا سريًّا خلفها.. جاء صوتها يناديه:

- تعال.. تعال أيّها الشقيّ.

كأنها أوقدت النيران في حطب شهوته عن أخرها فانطلق كالسهم لاهثًا.. انحنى جاثيًا ودخل الممر.. سرداب طويل بين الصخور نُحت باليد يكفي شخص واحد جاثيًا على يديه وقدميه.. وصل إلى منتهاه.. انتصب واقفًا.

غرفة بديعة حوائطها من الفسيفساء الرخاميّة تضوي عاكسةً أضواءً خافتةً لمصابيح زيتيّة صغيرة معلقة على تلك الحوائط .. رائحة الريّحان تملأ المكان.. مازال عازفي الموسيقى مستمرين في عزفهم تلك المقطوعة السرمديّة.. مرآة ضخمة حوافها من الخشب المطلي بالسواد المنحوت عليه رموز يونانية ورسوم لأفاعٍ تلمع بطلاء أبيض.. اقترب الشاب من المرآة.. تحسس تلك الأفاعي.. نظر لانعكاس صورته في المرآة.. شيء ما قبض قلبه.. خُيل إليه أن انعكاسه داخلها له عينان بَيْضاوان مرعبتان.. جفل ورجع للخلف.. توقف.. دقق النظر.. كل شيء على ما يرام.. يبدو أنه مضطرب للغاية.. هكذا قال لنفسه.. نظر الشاب حوله باحثًا عن تلك الفاتنة فلم يرها.

فراش من الذهب الخالص بالقرب من المرآة.. قنينة مملوءة بالخمر وكأسين من الفخار ممتلئين عن آخرهم في جوار الفراش الخالي.. ناداها:

- أين أنتِ؟

سمع صوتها:

- لماذا تأخرت؟

التفت نحو المرآة .. رأها داخلها فوق الفراش وكأنها جاءت من العدم.. نظر ناحية الفراش ليتأكد.. ذلك الجسد البديع لا يمكن أن يخطئه.. رأها كقطعة خبز ساخنة تنتظر آكلها الجائع منذ الأزل وهو ملتهمها الوحيد.. لطالما حلم بها الليلة

الماضية وآن أوان تحقيق الأحلام.. ولكن.. كيف ظهرت بغتة؟ لا يهمه الآن البحث عن إجابات.. اقترب منها.. كانت عارية تمامًا.. دعته بإشارة منها من دون كلمة واحدة.. خلع ملابسه وارتشف كأس خمر ووثب في جوارها ليشاركها ذلك الفراش الدافئ.. باتت أحلامه حقيقة بين أحضانها.. نهل من عسل قربها واشتبكت رغباته معها في حرب متقلبة.. في خضم الحرب التفت ناحية المرآة ليرى انعكاس صورتها.. جفل.. باغته إنعكاس لسيدة عجوز يضاجعها تهمس ضاحكة:

- أنا روح.. روح أيها الصياد الشقيّ.

فزع الرجل وتذكرها.. تعالى صوت الموسيقى إلى حد الألم في أذنيه.. الفتاة تحولت في غمضة عين لامرأة عجوز مخيفة يعرفها.. تلك العجوز روح تبتسم كذئب ينقض على فريسته أخيرًا بعد طول جوع.. رآها ممسكة بسكين كبير حاد.. لم تسعفه المفاجأة كي يهرب.. صوت صافرة حادة تصم أذنيه.. في لحظة واحدة كانت تلك العجوز تفصل رأسه عن جسده ليخور ثائرًا على ذلك الفراش.. تناثرت دمائه على جسدها العاري ووجهها .. أمسكت برأس الشاب تنظر إلى عينيه الجاحظتين واقتربت من المرآة تنظر لانعكاسها.. روح السيدة العجوز ترى فتاة فاتنة شابة صورة لها داخل المرآة، ولكنها هذه المرة بعيون بيضاوين مرعبتين ,عجوز وفتاة ساحرة الجمال يتشاركان نفس المرآة صورة لبعضهما البعض.. تعالت ضحكاتهما كشيطانتين انتصرتا في جولة مبدئية في حربهما على البشر.. تعالت الموسيقى الملحميّة الخفيّة.

-٢-

بعد عام واحد انطلقت سفينة شراعيّة بأمر رُبَّانها لتعبر مضيق بحر المجاز(1) نحو المجهول في بحر الظلمات(2).. ذلك البحر الهائل العظيم.. لم يكن من السهل أبدًا إقناع خليلي (ملاك) بأن يرافقني في هذه الرحلة المفعمة بالمخاطر.. لكنني أدركت في النهاية أنه سيوافق.. لطالما كان أكثر من أخي الّذي لم تلده أمي.. ترعرعنا سويًا في مدينة برمون.. تشاركنا أحلامًا عديدة على شاطيء بحيرة تنيس حيث كنا نلعب ونلهو في طفولتنا وصبانا.. حتى قصص حبنا البريئة لفتيات من جيراننا ما زلت أذكرها كطيف باهت يجبرني على الإبتسامة.. ثم فرقتنا الحياة.. انخرط هو في مساعدة والده في الصيد على مركبتهما الشراعيّة أما أنا فاخترت لنفسي التجارة.. تشتهر مدينتنا بغزل الصوف والكتان والخيش وكنت أنا سبب هذه الشهرة بعد أن أقنعت العديد من سكان المدينة بتخصيص حجرة صغيرة في كل بيت كمصنع صغير للغزل وعلمتهم فنونه جميعها حتى بات إنتاجهم مصدرًا رئيسيًا لكسب قوت أيامهم.. بيد أنني عقدت بعض الصفقات مع المدن المجاورة وصرنا نبيع لهم أغلب الإنتاج.

أنا يونس موسى الرحّال.. يلقبونني بـ صائد الذئاب.. ولهذا اللقب قصة.. فقد كانت مدينة برمون القديمة مرتعًا للذئاب المفترسة القادمين من الصحراء.. برمون من أعظم مدن مصر على مر التاريخ منذ أن كان إسمها (بيلوز) أو (بر آمون) في العصر القديم.. لموقعها المميز المطل شمالًا على بحيرة تنيس

المتصلة ببحر الروم وغربًا على الفرع البيلوزي لنهر النيل أما شرقًا فكانت الصحراء.. مأوى الذئاب المفترسة بأعدادها الكبيرة المتزايدة.. يحكي الأجداد عن هجوم ذئبيّ مريع لأكثر من مائة ذئب على شوارع المدينة نتج عنه مصرع مائة نفس على أقل تقدير.. امتلأت الساحات بالجثث وتعالى النحيب والبكاء.. وبعد الفراغ من دفن الموتى إلتزم الناس بيوتهم لأكثر من عشر أيام.. حتى خرج أحدهم بفكرة بناء سور ضخم حول مدخل المدينة الشرقيّ يفصلهم عن الصحراء.

هرع الجميع للمشاركة في بناء ذلك السور بدعم حاكم المدينة آنذاك وبعدها عاد الأمان للمدينة حيث مُنعت الذئاب خارجها ولكن ذلك السور تهدّم بفعل هجوم الفرس الأخير ولم يهتم أحد ببناءه خاصة بعد انتشار المشاعل في طرقات المدينة المضاءة ليلًا.. تلك المشاعل الزيتيّة قضت على أي هجوم محتمل.. حتى أثناء النهار حافظ الناس على إضرام النيران في أكوام من الحطب المتجدد باستمرار في طرقات المدينة وشوارعها.. الجميع اكتشف خوف الذئاب من النار.. أما أنا كانت هوايتي الوحيدة هي الخروج إلى الصحراء لصيد الذئاب.. أتذكر أول مرة خرجت بمفردي نحو الصحراء بعد أن قصّ والدي لي قصة هجوم الذئاب القديمة الّتي أقضت مضجعي هذه الليلة إلى أن أخذت سكينًا حادًا سرًا وخرجت نحو أطراف المدينة ناحية الشرق..

***

عبرت حطام الكنيسة ومساكن العمال المهجورة.. تسلقت

الجبل الصخريّ وترجلت نحو بقايا السور.. توغلت في الصحراء والتحدي يملأ صدري ممسكًا مصباحيّ الزيتيّ وانتظرت كثيرًا.. ترجلت في خُيلاء وغرور متعمد حتى ظهر أحد الذئاب.. وقف ينظر ناحيتي بعينين حادتين تحملان حقدًا قديمًا.. تركت المصباح أرضًا.. اقتربت.. ركض ناحيتي.. قفز.. في غمضة عين أخرجت سكيني وغرسته في رقبته فخرجت دمائه تخضب وجهي.. مات مرتعشًا مفترشًا جسدي أرضًا.

في الصباح الباكر دخلت إلى المدينة حاملًا الذئب منتشيًا.. رأيت الإعجاب في عيون الجميع..

بالرغم أنهم ما عادوا يكترثون لتلك الذئاب الخائفة من النيران ولكن القصة القديمة ما زالت عالقة بالعقول.. أما أمي فقد وبختني كثيرًا على تلك الفعلة.. خاصة لغياب أبي كعادته في رحلة جديدة للتجارة على رأس قافلة متجهة للعاصمة.. لم أبال.. وكررت تلك الفعلة مرات ومرات حتى أطلق عليّ الناس(صائد الذئاب).

الأمواج ترتطم بالسفينة بقوة ولكنها صامدة.. البرد يزداد قسوة متسللًا إلى أجسادنا بالرغم من تلك المعاطف الصوفيّة الكثيفة الّتي نرتديها.. صوت تذاؤب الرياح يتعالى.. نظرتُ إلى تلك الخريطة المثبتة على منضدة خشبية بسكين في منتصف غرفة الرُبَّان ثم نظرت ناحية (ملاك) متوجسًا.. شعر بارتباكي فابتسم:

--لا تخف.. أجزم بأننا في الطريق الصحيح.

- -ماذا إن كان التيه مصيرنا في بحر مجهول كهذا؟

- -أتستحق أي فتاة على هذه الأرض كل هذا العناء يا يونس؟

اجابته عيناي بالإيجاب.. اعلم أنه لا يصدق.. وكيف يصدق ذلك العاشق المتنقل بين عيون فتيات مدينتنا بين يوم وليلة؟ بيد أنني قد أعشق واحدة منهن كل صباح من دون حتى أن أتقرب لإحداهن.. حب عذريّ عن بعد.. مراهق بإمتياز.. تلك صورتي أمام ملاك.. ذلك الرفيق الناصح الرصين صاحب المقولة المتكررة:

- -ابتعد عن الفتيات تنعم بحياتك.

ابتعد ملاك عن النساء طوال عمره.. ربما لقصة حب واحدة طُعن فيها قلبه بخيانة غادرة.. عشقٌ لفتاةٍ وحيدةٍ لا تناسبه بالمرة.. ظلت تراوغه بحب زائف هو وغيره من شباب المدينة حتى رحلت مع أحدهم من دون سابق إنذار.. فقط تركت رسالة لكل عشاقها بأنها اختارت ذلك الشاب وهاجرت معه.. بعدها أغلق ملاك قلبه من دون رجعة.. فضّل العيش في سجون الوحدة على حرية محفوفة بمخاطر العشق والغرام.. وربما أيضًا لهيئته البعيدة كل البعد عن وسامة الشباب في مثل سنه فمنذ أن بلغ عمره خمسة عشر عامًا طار شعره بغتة .. ذلك الأصلع السمين صاحب البطن الدائري الممتلىء أمامه يكرر سؤاله:

- أتستحق أي فتاة على هذه الأرض كل هذا العناء يا يونس؟

- نعم تستحق يا ملاك.

مالم يقتنع به ملاك أنني تغيرت كثيرًا.. تبدلت تمامًا.. ربما لابتعاده مع والده وانتقاله للعيش في مدينة تنيس بالقرب من الميناء المطلة على بحر الروم مباشرة ليباشر عمله عن قرب.. ثم مات والده وتولى هو تجارة الصيد بنفسه فتباعدت المسافات واللقاءات بيننا ومع ذلك ظللنا خليلين أوفياء لأيام صبانا وذكريات الطفولة.

رأيتُ نفسي داخل عينيّ ملاك المبتسم دائمًا.. صورتي الجديدة الّتي يُنكرها.. قطبتُ جبيني والضيق يغزو صدري:

- كف عن هذه النظرة يا ملاك.

ربتّ على كتفي ممازحًا:

- حسنًا حسنًا يا يونس.. أنا جائع.. هلم بنا لنأكل سويًا.. ما رأيك؟

ضحكت.. ذلك السمين ذو البطن الكروية يأكل عشر مرات على أقل تقدير في اليوم الواحد.. لا أعلم من أين يأتي بكل هذا الطعام المخزن على سفينته؟ جلسنا نثرثر سويًا.. انهمك في التهام بعض السمك بعد أن جهز لنا أحد العمال تلك الوليمة وسط اهتزازات اعتدناها بفعل الأمواج الهائجة.. قاطعني ملاك:

- احك لي عن والدك يا يونس.

ليست المرة الأولى.. لطالما أحب ملاك حديثي عن أبي..

ربما لفقدانه والده في سن مبكرة.. لحرمانه من تلك المشاعر الدافئة.. لذلك لم أمل أبدًا من طلبه.. تنهدت مبتسمًا:

- أبي.. موسى الرحّال.. كم أحب ذلك الرجل الغازي الشيب رأسه مبكرًا! من لم يجبرني أبدًا على فعل أي شيء.. حتى بعد معرفته بقصة خروجي لصيد الذئاب لم يعترض.. فقط ابتسم لي مربتًا على كتفي:

- كن كما تريد يا بني.. كن أنت.

استشاطت أمي غضبًا بعد شكواها إليه.. وتوالت خناقاتهما كالمعتاد.. كانا على خلاف دائم منذ أن وعيت على هذه الدنيا.. برغم محاولات يائسة منه أن يحتويها في أحضانه ولكنها تأبى السكون والهدوء.. كانا مختلفين كل الاختلاف.

السيد موسى الرحّال.. رجل ربانيّ كما يطلقون عليه.. برغم أنه بدأ حياته ناسخًا للكتب ومترجمًا من اللغة الفارسيّة إلى القبطيّة.. إلا أنه كان حافظًا للأناجيل الأربعة ويردد آياتها في كل وقت.. قضى صباه هناك في بلاد فارس قبل أن ينتقل للعيش في مدينة برمون مع والديه هربًا من حروب الفرس آنذاك.. تعلم اللغة القبطيّة سريعًا ثم استغل معرفته باللغتين في ترجمة الكتب خاصة الفارسيّة منها واحتفظ بالكثير منها في تلك الغرفة في دارنا حالمًا بإعادة ترميم مكتبة الإسكندرية من جديد بعد حريقها الضخم منذ أجيال مضت.. حاول مرارًا لقاء الحاكم سيروس اليوناني وأرسل إليه العديد من الخطابات يطالبه بإعادة ترميمها وأن تكون كتبه نواة لإعادة إعمارها بالإضافة لبعض الكتب الّتي تم إنقاذها من

الحريق ونُقلت إلى مكتبة معبد السيرابيوم من دون جدوى أو رد .

في ليلة صيفيّة أيقظني هواء عليل تسلل عبر نافذة غرفتي يحمل رائحة الريّحان.. جلست في فراشي شاردًا ثم خرجت نحو مكتبة والدي الصغيرة.. مكانه المفضل دائمًا.. وجدته يقرأ كتابًا قديمًا.. احتضنني مبتسمًا.. لامست لحيته الكثيفة وجهي:

- أما زلت مستيقظًا يا بني؟

- النوم يجافيني هذه الأيام يا أبي.

- ربما قلبك هو السبب.

قالها ضاحكًا فابتسمت.. استطرد:

- لا تبحث عن العشق.. عليك أن تبحث عن الحبيبة.

- ما الفارق؟

- فارق كبير.. مشاعر العشق يولد بها المرء داخل قلبه جزءًا لا يتجزأ منه ويكتشفها في مثل سنك تقريبًا ويوجهها نحو أي أنثى.. هذه هي الفطرة.

مشاعر ملتهبة تُحيلك بغتة إلى الجنة ولكن إذا كانت تلك الأنثى إختيارًا خاطئًا فستقضي عمرك كله تبحث عن تلك الجنة الضائعة وسط الجحيم.. العشق الحقيقي يولد في نفس اللحظة بين اثنين ويكبر حد الكون حتى يقررا المضي لأخر العمر سويًا تحت ظلاله الدافئة.. اسمع هذه.

مد يده واخرج كتاب ونزع خيوطه وتصفح الأوراق ثم نظر لي مبتسمًا:

- بَرْدُ نَسيم الحجاز في السَّحَرِ.. إذا أتاني بريحهِ العطِرِ .

ألذُ عندي مما حوتهُ يدي من اللآلي والمال والبدَر .

ومِلْكُ كِسْرَى لا أَشتَهيه إذا ما غابَ وجهُ الحبيبِ عن النظر.

سقى الخيامَ التي نُصبنَ على شربَّة الأُنسِ وابلُ المطر.

منازلٌ تطلعُ البدورُ بها مبرقعاتٍ بظلمة الشَّعرِ.

بيضٌ وسمرٌ تحمي مضاربها أساد غابٍ بالبيضِ والسُمر.

صادتْ فُؤادي مِنهُنَّ جارية , مكْحولة, المقْلتين

بالحور تريك من ثغرها إذا ابتسمت كاسَ مدامٍ قد حفّ بالدرّر.

هذا شعر غزل لعنترة بن شدّاد.. أتعرفه؟

قاطعت محاولته لجرجرتي نحو القراءة والاطلاع متسائلًا:

- أبي! لماذا تزوجت أمي؟

- ماذا؟

- أنتما مختلفين يا أبي.. أظن أنكما لا تحبان بعضكما البعض.

تغير وجهه.. صمت برهة ثم اجابني بحزن يحاول أن يخفيه:

- أمّا الآنَ فيَثبُتُ: الإيمانُ والرَّجاءُ والمَحَبَّةُ، هذِهِ الثَّلاثَةُ

ولكن أعظَمَهُنَّ المَحَبَّةُ.

تنهد مسترجعًا ذكرياته والتمع بؤبؤ عينيه:

- رأيت أمك في رحلة إلى مسقط رأسي في بلاد فارس.. جذبني جمالها الأخاذ.. أسرني ذلك الوهج المصاحب لكل شيء تفعله.. لفتاتها, ضحكاتها,نظرة عينيها.. جرجرني ذلك التمرد المحتل عينيها.. بنت وحيدة ماتت أمها عند ولادتها ومات أبوها في حروب الفرس الأخيرة.. تعيش بمفردها وتعمل في الصيد على مركب صغير تملكه تخرج عليه بالأيام وتعود لتبيع كل ما جنته في سوق المدينة.. رأيتها من شرفة بيت يطل على السوق.. من الوهلة الأولى ألهبت مشاعري.. ظننت أنها تلك الحبيبة الّتي أبحث عنها.. تزوجتها وسافرت معي إلى برمون.. لكن تلك المشاعر وثورتها سرعان ما اصطدمت باختلاف شخصيتنا عن بعضنا البعض.. أنا أحب الترحّال وهي تكرهه.. تريدني في جوارها دائمًا.. كالبحر الثائرة أمواجه في أعتى الليالي المعتمة كانت وأنا كضوء دافىء ساعة الغروب في نهار صيفيّ.. حاولنا ولكن لا يمكن أن يختلط الليل والنهار أبدًا.. لكنهما التقيا في نقطة واحدة.. أنت.. حضورك في الدنيا جمعنا.. صار بيننا طفلًا لا بد أن يُلاقي الرعاية الكاملة .. تعايشنا.. ومع ذلك ما زالت قلوبنا تلهث وراء تلك الجنة المفقودة وسط جحيم مشاعرنا.. نجاهد أنفسنا.. هذا ما أوصانا به الرب.

أَيُّهَا الأَزْوَاجُ، أَحِبُّوا زَوْجَاتِكُمْ مِثْلَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ الْكَنِيسَةَ وَبَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا.

- أتعلم يا أبي أنني أحبك أكثر من أي شيء في هذه الدنيا؟

- وعليك أن تحب أمك أيضًا.

أومأت له برضا زائف غير مقتنعًا.. في داخلي مشاعر متضاربة تجاهها.. حب وكره في آن واحد.. كأنني انقسمت إلى شخصين يتصارعان على الدوام.. أحدهما يلتمس لها الأعذار الدائمة في معاملتها الجافة معي النابعة من خوفها الزائد وحبها الكامن الّذي تجهل التعبير عنه والأخر يمقتها ويكره أفعالها وأوامرها ومحاولاتها الدائمة للسيطرة عليّ وعلى أفعالي.

لم يتوقف الأمر عند ذلك بل تخطاه حد العناء.. ما زلت أتذكر تلك السنة الّتي استهلت أخبارها بعودة انتشار الطاعون في بلاد مجاورة لمدينتنا.. طاعون جستنيان الّذي بدأ منذ أكثر من مائة عام في موجات ضربت كل الإمبراطورية البيزنطية وراح ضحيتها مئات الآلاف.

لم تستطع أمي أبدًا منع أبي من الترحال إلى تلك البلاد المنتشر فيها الطاعون من قبل مهما علت صرخاتها اعتراضًا.. سمعته يكرر لها دائمًا بصوت هادىء:

- إن كان الموت واقعًا فلا مفر وإن كنت مختبئًا تحت الأرض.

فقدانها السيطرة الكاملة على أبي جعلها أشد قسوة وحدة معي.. زادت صداماتنا برغم أنني حاولت طمأنتها بأنه من حسن الحظ أن برمون بعيدة عن تلك الموجات بعض الشيء

ربما لعدم صلتها المباشرة بالسفن التجارية المتنقلة بين سواحل بحر الروم والناقلة للفئران المصابة بالمرض سبب انتشار ذلك الوباء.. كما أن عمال الميناء وجميع من يعملون بالصيد انتقلوا إلى المدينة الأقرب لبحر الروم منا.. مدينة تنيس.. بالإضافة إلى أن برمون مدينة مليئة بالهررة المنتشرة في شوارعها وأسواقها فمن الصعب على أي فأر العبور منهم أبدًا سالمًا.. لكن هيهات.. بات بيتنا جحيمًا لا يطاق.

في إحدى الليالي العاصفة بينما كنت في غرفتي أحاول الاستغراق في النوم بلا جدوى متدثرًا بغطاء كثيف متجاهلًا أصوات الرياح المتعالية استمعت إلى صوتٍ أنثوي يناديني:

- يونس.. يونس.. يونس.

صوت مُعذب.. كأن صاحبته تبكي منذ الأزل.. جلستُ على فراشي متنهدًا.. للوهلة الأولى اعتقدت أنني سقطت في غفوة مباغتة وأن ذلك الصوت كان جزءًا من كابوسٍ مزعج ولكن الصوت لم ينقطع.. نهضت من فراشي متعجبًا.. نظرتُ حولي.. ترجلتُ ناحية فناء البيت متوجسًا.. أمسكتُ مصباحًا زيتيًا وتوجهت نحو مصدر الصوت.. غرفة أبي وأمي.

- يونس.. يونس.. يونس.

مددتُ يدي لأفتح بابه الخشبيّ.. أصدر صريرًا مرعبًا.. تسلل ضوء المصباح مغتالًا ظلام الغرفة.. برقت عيناي حينما رأيت أمي يرتفع جسدها في الهواء فوق فراشها مغلقة عينيها.. صرخت:

- -أمي.

سقطت حينها على الفراش وفتحت عينيها متعجبة.. سألتني:

- يونس! ماذا تريد؟

كل مادار في رأسي حينها أنها ضربت بتحذيرات أبي لها عرض الحائط.. لنا جارٌ دجال يدّعي أنه على اتصال بالجن والشياطين وأنه يستطيع تنفيذ كل الرغبات لمن يدفع.. زوجة ذلك الرجل استدرجت أمي عدة مرات ونهاها أبي عن معرفتها والتقرب منها ولكنها لم تكترث لتحذيراته.. شيء ما في داخلي ينبئني بأن ما رأيته تلك الليلة له علاقة مباشرة بذلك الدجال.. اشتعل صدري غيظًا وبالكاد سيطرت على نفسي.. سأخبر أبي بكل شيء.. تنهدت:

- لا شيء.. تصبحين على خير.

تركت فراشها وتحركت ناحيتي.. مدت يديها وربتت براحتيها على وجهي.. شعرت بآثار تلك الندبة في راحة يدها اليسرى.. منذ سنين مضت جرحت نفسها أثناء إعداد الطعام بسكين حاد وترك الجرح تلك الندبة الخشنة في يدها .. ابتعدت عنها ليس بسبب الندبة ولكن لأن مشاعري تأبى الإستسلام لذلك الحب المشروط بالسيطرة التامة.. ربما لأنني ورثت عنها ذلك التمرد الملازم لروحها.. عدت إلى غرفتي وسط تزمرها.. واختفى الصوت المناديّ ليّ كأنه لم يكن.

في اليوم التالي استيقظت على صرخات جارتنا زوجة هذا

الدجال.. هرعت إلى خارج البيت لأراها تقف على عتبة بيتها القريب معلنة موت زوجها بالطاعون.. فر الناس بعيدًا قبل أن تقتل نفسها بسكين دبته في قلبها لخوفها من أعراض المرض المنتقل لها من زوجها الميت.. تُركت جثتيهما لأيام عديدة حتى أرسل حاكم المدينة فرقة من الجنود سحبوا جثتها إلى داخل بيتهما في جوار جثة زوجها في مهمة انتحارية واحرقوه بهما بالكامل.. من تدابير القدر أن البيوت هنا مستقلة بذاتها.. كل عائلة تسكن بيتًا من دور واحد ويفصلهما حدائق من الريحان والورود مما سهل مهمة الجنود بتمركز النيران في ذلك البيت فقط من دون أن يطال غيره.

أما أمي فقد جن جنونها.. باتت كوحش هائج لا يوقفه شيء.. حبستني عنوة داخل غرفة المكتبة الخاصة بوالدي لأنها الغرفة الوحيدة في بيتنا بلا نوافذ وأغلقت عليّ بابها الخشبيّ بسلاسل من حديد.. شهران من حبس جبريّ حاولت بكل طريقة ممكنة الخروج منه بلا جدوى.. صرخت وغضبت وحاولت تكسير الباب الخشبيّ السميك ولم استطع.. في ميعاد ثابت يوميًا تفتح نافذة حديدية صغيرة مُطلة على باحة البيت وتُدخل لي إناء من ماء وبعض الطعام.. في كل ليلة أحاول التحدث إليها ولكنها لا تجيب.. حتى قضاء حاجتي لم تنسها.. يبدو أنها استعدت لذلك جيدًا.. تركت لي إناءً فخاريًا عميقًا وطلبت مني بهدوء أن أضعه يوميًا عند النافذة الحديديّة لتُبدله بأخر نظيف.

تلك النافذة لم يكن من السهل أبدًا التسلل خلالها ومع ذلك

حاولت أثناء وضعها للطعام وتبديلها للإناء الفخاريّ أن أنفذ عنوة خلالها وما كان منها إلا أن دفعتني بكل قوتها للداخل فوقعت أرضًا وحذرتني من تكرار ذلك وإلا ستمنع عني الأكل.. لم اكترث لتهديدها وكررت محاولاتي لأيام وفي كل مرة تشتد قوتها حتى أنها صارت تضربني بعصا غليظة لتمنعني.. كدتُ أن أفقد الوعي ذات مرة بسببها.. تمنيت أن يعود والدي من رحلته وينهي تلك المهزلة ولكن الأيام تمر من دون أي تغيير.. وفي خضم هذه المعاناة استمعت إلى ذلك الصوت الأنثوي المعذب من جديد:

- يونس.. يونس .. يونس.

تعالت صرخاتي:

- من أنتِ؟ من أنتِ؟ أمي.. افتحي هذا الباب اللعين.

أيام مرت والصوت يتكرر بين حين وأخر وأمي لا تكترث مهما علا صوتي الغاضب حتى اعتدت سجني.. في الليلة العاشرة بدأت في تصفح إحدى تلك الكتب فوق رفوف المكتبة.. كتاب عن الأساطير القديمة.. قرأت عن أسطورة عروس النيل.. في الليلة الثانية عشر من شهر بؤونة من كل عام يتم اختيار فتاة عذراء جميلة بشكل سري ويلبسونها الحلى والثياب الزاهية ثم يلقونها في النيل قربانًا حتى يجري ماؤه ويفيض.. ضحكت.. ما هذا الهراء.. من المؤكد أنها أسطورة غير حقيقية.. أي عقل بشريّ يصدق ذلك؟ تابعت القراءة.. مرت الأيام وأنا أتنقل بين كتاب وآخر.. حكايات الأولين.. قصص وروايات من الأدب الفارسيّ القديم..

أعجبني شخصية تُدعى اسفنديار وحكاياته ورحلاته في الملاحم الفارسيّة المؤلفة والمترجمة بخط والدي.. وكتب أخرى عن العلوم المختلفة.. كتب عن المسيحية.. كتب عن اضطهاد الرومان للمسيحية في بدايتها.. ثم جذبني كتاب يتناول حياة يسوع .. قرأت ذلك المقطع قبل أن اسقط في نوم عميق: حدد المؤرخ اليهودي يوسيفوس موت هيرودس بسنة ٧٥٠ رومانية التي تقابل ٤ ق م، وكون أن يسوع ولد في أيام هيرودس فيكون ولد أواخر سنة ٧٤٩ أو أوائل سنة ٧٥٠ رومانية وحسب بشارة القديس لوقا أن السيد المسيح بدأ خدمته الجهارية في السنة الخامسة عشر من حكم طيباريوس قيصر الذي حكم الدولة الرومانية سنة ٧٦٥ رومانية، وحيث كان عمر يسوع ثلاثون سنه وقتئذ، فيكون ميلاد يسوع سنة ٧٥٠ رومانية أي عام ٤ قبل الميلاد.

ضوء يملأ الكون.. أدرك أنني نائم.. طيور ترفرف في كل مكان حولي.. بيض ناصعة البياض.. سماء يملأها الضوء الساطع.. شمس دافئة تنتصف السماء وشاب في ريعان الشباب يقترب.. لم ترى عيني أجمل منه.. قوي البنية متوسط الطول بشرته مشربّة بالحمرة .. شعره مسترسل بلون البندق.. أخال رأسه تقطر ماء وما بها ماء.. توقف أمامي.. كنتُ مطمئنًا مبتسمًا كأنني أعرفه.. ربتّ على كتفي هامسًا:

- كن مع الله تنج.

رفرفت الطيور وغردت بأجمل الأصوات.. استيقظت مبتسمًا.. عاودت قراءة الكتاب من جديد.. أجزمتُ أنني رأيت

يسوع في منامي .. أو هكذا تخيلت.. شهران لم أشعر بهما بين طيات تلك الكتب.. حتى ذلك الصوت المُعذبة صاحبته اختفى مع الأيام.

ثم فتحت أمي باب المكتبة لتزف لي خبرًا بخلو المدينة أخيرًا من الطاعون.. لقد أعلن الحاكم ذلك بعد حجر صحي موسع انتهى للتو.. للحق لم أرغب في الخروج من المكتبة.. استغربت من رد فعلي.. ابتسمتُ لها.. نهضتُ في هدوءٍ وخرجتُ من البيت.. ترجلتُ نحو شاطيء بحيرة تنيس وبقيت هناك لساعات طويلة.. أنظر إلى الأمواج كأنها تُحدثني.. تُطربني شقشقة العصافير كأنني استمع إليها لأول مرة.. أشعر بحرارة الشمس ودفئها كأن أشعتها تحتضنني وتربت على قلبي.. العالم يباغتني باختلاف جذري كأنني تبدلت.. أرى كل شيء مغايرًا لما اعتدتُ عليه.

افترشت الرمال الناعمة بجسدي تداعبني أطراف أمواج واهنة.. نظرت إلى السماء وشردت في كون جديد أراه بعين والدي .. بعين قارىء كتب أضاءت العقل والروح.. مر يومي حتى الغروب في نفس المكان ثم عدت إلى البيت شخصًا آخر.. نمت في فراشي بعدما هجرته لشهرين.. للعلم لم أخبر والدي حينما عاد من رحلته في الشهر التالي بأي شيء مما جرى.. فقط أخبرته أنني قرأت بعض الكتب ورأيت فرحة تتقافز في عينيه وأنا أناقشه في بعض ما جاء في كنوزه المنسوخة.

تغيرت.. لم تعد تلك الفتيات الصغيرات تستهويني في

مدينتنا.. بدأت أحلم بمستقبل مغاير.. في إحدى الكتب قرأت عن طريقة صناعة غزل الصوف والكتان.. اخترتُ أن أجرب بنفسي تلك الطريقة ونجحتُ بعد محاولات كثيرة ثم تطور الأمر حتى أصبحت سببًا رئيسيًا في تجارة وصناعة الغزل المشتهرة به برمون.

ذات ليلة عاد والدي من رحلته الأخيرة حاملًا هديّة.. مرآة من الفضة بديعة الصنع.. أخبرني أنه أشرف بنفسه على صنعها خصيصًا لي.. منحوت على جوانبها صقور وعلى خلفيتها نُحتت جملة.. قرأتها:

«تَوَكَّلْ عَلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَعَلَى فَهْمِكَ لاَ تَعْتَمِدْ.. فِي كُلِّ طُرُقِكَ اعْرِفْهُ وَهُوَ يُقَوِّمُ سُبُلَكَ»

- تعال.. قف أمامها.. انظر لنفسك.

فعلت ما طلبه.. امسك بيديّ مبتسمًا:

- مهما ضاقت بك الدنيا يا بني تذكر أنك رأيت نفسك هنا على حقيقتها.

الرب يحفظك يا بني.

احتضنني.. رأيت دموعًا كامنة في عينيه.. سألته متعجبًا:

- ما الأمر يا أبي؟

- لا شيء.. لا شيء يا يونس.

ضمني بين ذراعيه في حنان لا يُقارن.. لم أدرك وقتها أنها المرة الأخيرة.. لو كنت أعلم ذلك لبقيت في أحضانه عمر

بأكمله.. ذلك الدفء لم أنسه أبدًا.

مات أبي.. مصدر الحنان الوحيد في حياتي.. احترق مع مكتبته في غمضة عين.. كنا على موعد للسهر ليلًا لنتناقش في كتاب جديد نسخه أثناء رحلته قبل الأخيرة وتركه لأقرأه.. عدت في نهاية يومي لأجد البيت كله يحترق بمن فيه.. حاولت إطفاء الحريق من دون جدوى.. وحينما دخلت بعد السيطرة على النيران عثرت على جثمانه المحترق جالسًا فوق كرسيّه الخشبيّ داخل المكتبة.. كأنه مات في مكانه قبل أن تصل النار إليه.. لغز كبير لم أعثر له على إجابة خاصة أن أمي لم يكن لها وجود في البيت كله.. لم يرها أحد.. ليس هناك جثة أخرى غير جثة والدي.. انتشرت الأقاويل أن أمي قتلت أبي وأشعلت النار في البيت وهربت.. تلاسن الناس حول خناقاتهما المستمرة وصوتها العالي بين حين وغيره كلما عاد السيد موسى الرحّال من رحلاته التجارية والثقافية .. السيدة روح قاتلة زوجها الربّاني.. انتقلتُ للعيش في بيت أخر بمفردي وحاولت تجاهل تهامس الناس وإشاعاتهم.. كنت على معرفة جيدة بطبعهم وعلمت أنهم سيتناسون ذلك مع الأيام ويذكرون ذلك الشخص الّذي يساعدهم في تجارة الغزل.. لن ينسون فضله مهما كان.. يونس.. بيد أن جرائم متتالية عانت منها برمون في فترة قصيرة.. رجل يذبح زوجته لشكه في خيانتها.. سيدة تقتل زوجها بالسم لتهرب مع عشيق لها.. زوج يتخلص من زوجته حرقًا لأسباب مجهولة.. لكن جميعهم يقتلون أنفسهم بعد ارتكاب الجريمة مباشرة فتناسى الناس قصة أمي بين مصائب متكررة

مجهولة.

مرت الأيام وفراق أبي يغص في قلبي بشدة.. العجيب أنني لم أبال بأمي ولم أفكر فيها ولو لحظة كأنني كنت راغبًا في رحيلها منذ صباي.

أيام تمر تشبه بعضها بعضًا.. كأن العالم قد انتهى ومات كل البشر بموت أبي.. حتى تلك الجرائم الفرديّة لبعض سكان برمون لم تشغل بالي.. سكون لم يقو أحد على اختراقه.. ظننتُ أنني سأُكمل ما تبقى من العمر هكذا.. جسد بلا روح.. حتى قابلتها.. فتاة غيرت كل شيء.. بعثت الروح في جسد ظن أنه لن ينبض قلبه أبدًا.. شهد.. كأجمل ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة في كتب أبي كانت.. كشمس دافئة ترسل ضيائها بلون الذهب المنعكس فوق مياه بحيرة هادئة.. كنعيم يشبه جنة أبينا أدم كما وصفها الأدباء والشعراء.. كنسيم عليل يُدخل السعادة إلى القلب من دون أسباب واضحة.. كطيور بيضاء ترفرف.. كقيثارة أوتارها من أصوات الطبيعة يُعزف عليها لحنًا بديعًا يفتح أبواب قلبي بغتة.. بهجة مباغتة اجتاحت روحي .. كنت هناك على شاطىء البحيرة كعادتي كل يوم وقت الغروب.. اختلي بنفسي في هذا المكان البعيد نسبيًا عن المدينة شاردًا في لا شيء.. رأيتها.. فتاة في العشرينات من عمرها.. جالسة تحت شجرة تغني.. جذبني صوتها العذب.. صوت من الجنة.. لم استمع إلى صوت أجمل منه في حياتي.. اقتربت.. رأيتها ممسكة بخيوط من الصوف تغزلها.. لم تلحظ وجودي:

- ولقد بكيت على تفرق شملنا,

زمنًا وفاض الدمع من أجفاني,

ونذرت إن جمع المهيمن بيننا,

ما عدت أذكر فرقة بلساني,

هجم السرور عليّا حتى أنه,

من فرط ما قد سرني أبكاني.

شعر لامرئ القيس.. تعجبت أن تعرفه فتاة في مدينتنا.. اقتربت أكثر وأكثر.. لفت نظري عينيها الزرقاوتين.. لون ثائر كأمواج تدعوك لترتمي في دواماتها من دون مقاومة .. سحرني شعرها الأسود المتدلي على كتفيها كليلة عاشق ولهان يكتب قصيدته الأولى في حبيبته متمنيًا ألا تنتهي.. أسرني جسدها البضّ المتناسق برغم محاولة اخفاءه تحت رداء أبيض فضفاض مرصعًا بخيوط فضيّة تضوي.. ذراعيها كالمرمر بيضاوين وعلى كتفها الأيمن تبرز شامة بنيّة تبدو كصقر صغير ينظر نحو وجهها مسحورًا بجمالها مثلي.. وقفت أمامها مشدوهًا غارقًا في طوفان مباغت من مشاعر لا تفسير لها حتى انتهت من غنائها.. رفعت نظرها تجاهي.. التقت عينانا.. يا الله.. تلك الابتسامة على ثغرها كبحر رائق في يوم صيفيّ يحتضنه دفء الشمس في كل لحظة.. تعجبت:

- يونس الرحّال؟

- أتعرفينني؟

- ومن في مدينتنا لا يعرفك؟

- بداية مشجعة.

- لا تأمل في شيء.. أعرفك بالطبع لأن أبي يعطيك إنتاجه من الغزل بشكل دوري.

- من أنتِ؟

- أنا شهد.. شهد بنت راؤول الخيّال.

- فكرت كثيرا في ركوب الخيل ولكن لم أجد من يشجعني.

نهضت حينها واقتربت والإبتسامة تملأ ثغرها الساحر.

- شجع نفسك.

اشتممت عبيرها عن قرب.. كرائحة ورود مختلطة بأروع العطور.. ابتعدت.. ناديتها:

- انتظري.

لم تتوقف.. غابت عن النظر وسط حفيف الأشجار وزقزقة العصافير والشمس المهيئة للرحيل ليسطع قمر جديد.. ولكن الليلة ليست ككل ليلة فقد بزغ في سماء قلبي قمر تحرك قلبي بسببه مجددًا.

تمنيت ليلتها أن أرتمي في أحضان والدي لأخبره أنني قد وجدتها.. الحبيبة.. حدسي يخبرني بذلك.

أيام مرت وفي كل غروب للشمس انتظرها في نفس المكان ولكنها لم تظهر.. تشجعت وذهبت ناحية بيت والدها

وتحججت بطلب تزويد حصته من إنتاج الغزل لعلي أراها ولكن باءت محاولاتي بالفشل.. ظللت على هذه الحال عشر أيام حتى رأيتها بغتة في نفس المكان.. تحت ظلال الشجرة الكبرى.. وصوت زقزقة العصافير حولنا تحتفل بعودتها.. في لهفة العشاق اقتربت منها معاتبًا:

- أين كنتِ؟

- وهل كان بيننا موعد؟

- انتظرتك ها هنا كل يوم في نفس الموعد.

- يبدو أنك تتوهم.

- شهد.. أنا أحبُّك.

- آه.. أنت مجذوب إذًا!

- الحياة قصيرة .. لا وقت فيها للمقدمات.. أقول ما أشعر به على الفور.

- ربما أنت مخطيء كعادتك.

- كعادتي؟

- نعم.. تتحاكي الفتيات في المدينة عنك .. عن ذلك الوسيم ذي العينين البنيتين والجسد الممشوق الّذي يُغرم كل يوم بواحدة منهن.. العاشق لكل من تصل إليها نظراته.

- يبدو أنني أخر من يعلم الأشياء في هذه المدينة.

قلتها ساخرًا .. ابتسمت:

- هذه حكاوي قديمة واعلم أنك تغيرت كثيرًا.. أو هكذا يقول الناس.

- أنت مهتمة بأخباري إذًا.

احمر خديّها بغتة.. تجاهلت نظراتي وترجلت نحو البحيرة وشردت في مياهها الساكنة.. اقتربت منها.. من دون مقدمات مددتُ يدي وامسكت يدها .. استسلمت لي.. وضعت رأسها فوق كتفي.. تنهدت:

- لطالما تمنيت لقائك يا يونس.. والدك من أقرب أصدقاء أبي.. وأنا قارئة جيدة لبعض الكتب الّتي نسخها بيده خاصة الشعر منها.

- لهذا تعرفين أمرؤ القيس.

- لقد أحببتك أعوامًا عن بعد يا يونس.. رفضت الزواج من الكثيرين فقط لأبقى على العهد.

- أي عهد؟

- عهدٌ مع روحي.. لن أكون لغيرك.

- عجبًا.. لماذا لم تحاولي التقرب مني أبدًا؟

- لأن الحب لا يُطلب.. العشق يولد بين اثنين في نفس اللحظة.. أما ما غير ذلك فهو الجحيم ذاته.

نظرت في عينيها متعجبًا.. تذكرتُ كلمات والدي:

- العشق يولد بين اثنين في نفس اللحظة.

اغرورقت عينيّ بالدموع.. سقطت في بحور عينيها الزرقاوتين.. استسلمت لأمواج غرامها وانجرفت في فيضان حبها من دون مقاومة.. تلاقت شفاهنا الملتهبتين في قبلة أفنت العالم الماديّ وأحزانه من حولنا وأدخلتنا جنة العشق للأبد .. أعلنت الدنيا مولد عشيقين جمعهما القدر كأدم وحواء.. في لحظة تمنيا أن يملكا الكون بأكمله.. يُحلقا فوق سحب الأمنيات.. أن يبلغا النجوم والقمر مسكنهما.. بات قلبيهما كنيسة للعشاق النازحين من كل صوب وحدب للالتقاء على ضفاف حبهما المقدس قبلة لمن هوى.. اغترفنا من سعادة لا تفنى.

في نفس الليلة جلست شهد في غرفتها أمام مرآتها يغمرها فرح العالم والعشق يغزو روحها.. خُيل إليها أنها تراني في غرفتي عبر المرآة أنظر إليها في حب وهيام.. في نفس التوقيت كنت في غرفتي في بيتي الجديد أمام مرآتي.. أفكر في شهد.. سأتزوجها بأسرع ما يمكن.. لن أضيع لحظة من عمري بعدًا عنها.. رأيتها عبر المرآة.. ابتسمنا.. ظننا أن قلوبنا تُهييء لنا ذلك.. سمعتُ دندنتها لنفس الأغنية الّتي سمعتها منها لأول مرة.. دندنتها معها:

- ولقد بكيت على تفرق شملنا,

زمنا وفاض الدمع من أجفاني,

ونذرت إن جمع المهيمن بيننا,

ما عدت أذكر فرقة بلساني,

هجم السرور عليَا حتى أنه,

من فرط ما قد سرني أبكاني.

تراقصنا كلٌ في غرفته.. غرقت أرواحنا في بحور اللذة والعشق الأزلي.. بغتة انتبهنا.. نرى بعضنا البعض بالفعل.. لم يكن خيالًا .. اختفت انعكاس صورنا الإعتيادية.. كل منا يرى الأخر.. صورة لبعضنا البعض.. مددنا أيدينا نتحقق من بعضنا البعض.. همست مستغربة:

- يونس.

همست:

- شهد.

كانت تلك اللحظات هي بداية إعلان الشيطان حربه علينا ليخرجنا من الجنة.. في نفس اللحظة دقت أجراس الألم.. جاء رجل من أهالي المدينة لاهثًا يركض صارخًا صرخات مرعبة:

- يا أهالي برمون.. يا أهالي المدينة.

فتح الناس نوافذ بيوتهم وخرج بعضهم من الشرفات بينما هرع الباقين نحو ساحة المدينة الرئيسية بالقرب من المسرح الرومانيّ حيث يقف الرجل.. التفتُ ناحية مصدر الصوت ثم نظرتُ إلى المرآة لأرى فيها صورتي انعكاسًا لي.. اختفت شهد.. صوت الرجل أجبرني على الخروج لاستقصاء ما يحدث.. هرولتُ حاملًا مصباحيّ الزيتيّ مُعتقدًا في ظهور

موجة جديدة من طاعون جستنيان كأغلب الناس .. وقف الرجل على درجات سلم مرتفع فرأيناه أجمعين.. التقط أنفاسه:

- لقد رأيت الشيطان على أبواب المدينة.

- أجننت يا رجل؟

- لقد رأى الشيطان!

- أنت مجذوب بكل تأكيد.

تتابعت الضحكات من هنا وهناك ولكن الرجل استطرد مذعورًا:

- اسمعوني.. أتذكرون تلك السيدة روح زوجة موسى الرحّال.. ذلك الرجل الربَّاني المختفية زوجته في نفس توقيت حرق بيته بجثته؟

فاجأني كلامه.. اقتربت من الرجل واسترقت السمع بكل تركيز.. استطرد:

- كنت وجاري ننقل بعض الأخشاب من تلك البيوت المهجورة لعمال الميناء وفي طريق عودتنا مررنا بأطلال الكنيسة المهدمة عند أطراف المدينة.. استمعنا إلى صوت امرأة تنادي:

يونس.. يونس.. يونس.

برقت عيناي.. لقد سمع هذا الرجل نفس الصوت الأنثوي المنادي لي منذ أعوام.. قالها ناظرًا ناحيتي.. ثم استطرد.

- توقفنا مستغربين.. ترجلنا من العربة الّتي تجرها الخيل وتتبعنا مصدر الصوت.. هناك.. خلف الجبال وسط الصحراء رأينا ما لا يصدقه عقل.. ثمة سيدة عارية جالسة على كرسي ذهبيّ مرصعًا بالياقوت والمرجان.. ارتفع ذلك الكرسي بها عن الأرض.. ظل معلقًا في الهواء.. دققنا النظر.. إنها السيدة روح زوجة موسى الربّاني.. سيدة عجوز عارية.. في غضون ثوانٍ معدودة ظهر خلفها كيان عجيب.. امتلأت به السماء.. رجل عرضه كالمسافة بين طرفي المدينة شرقًا وغربًا من رماد.. كأنه يحترق منذ آلاف السنين.. رأيناه رأي العين في خلفية كرسيها.. بعدها سقط جاري في نوبة من الارتعاشات.. وركضت لاهثًا وابتعدت والصوت ينادي:

- يونس.. يونس.. يونس.

نظر الجميع في هذه اللحظة ناحيتي وفي عيونهم مئات الأسئلة الّتي لا أملك لها أي إجابة.. بادرت قاطعًا تلك الاتهامات في أعينهم:

- لنذهب إلى هناك ونرى بأنفسنا.

تقدمتُ زحامهم.. تحركنا مترددين نحو أطراف المدينة ممسكين مصابيحنا الزيتيّة والصمت يخيم فوق رؤوسنا.. حشد مهيب.. صاحبني ذلك الرجل مرتعشًا.. كل ما أفكر فيه.. هل صاحبة ذلك الصوت هي أمي؟ لا اعتقد ذلك.. هذا اللغز لا بد له من تفسير.. مسيرة ساعة من الزمن تقريبًا حتى وصلنا إلى المكان المرصود.. وقفنا مذهولين تمامًا.. لا شيء هناك

على الإطلاق غير عربة الخيل.. حتى جار الرجل الفاقد للوعي لا وجود له.. والأخطر من ذلك أن أطلال الكنيسة وحطامها قد اختفيا تمامًا.. همس الرجل:

- محال.

برقت أعيننا جميعًا.. كلنا نذكر أن تلك الأطلال كانت هنا في ذلك المكان بالتحديد.. طوب واحجار وعواميد جرانيتية مهدمة وبقايا أسوار الكنيسة .. كل ذلك قد اختفى كأنه لم يكن هنا في يوم من الأيام.. نظر الجميع نحوي تُطلق عيونهم سهامًا حادة من الشك والريبة.

بحثنا عن جار الرجل في كل مكان ولم نعثر له على أثر.. البعض اعتقد أن الرجل قد فقد عقله وخُيل إليه كل ذلك وعاد للمدينة والبعض الأخر شغله اختفاء تلك الأطلال ووقفوا يراقبون السماء حتى مطلع النهار.. لا وجود لهذا الكيان الشيطاني.

في الصباح عدنا أدراجنا.. لم ندرك أن أبواب الجحيم قد فُتحت تلك الليلة ونودي الشياطين من كل مكان لتتحول مدينتنا في غمضة عين إلى بحور من الدماء.

عند المدخل الغربي استمعنا إلى صراخ ونواح.. هرعنا إلى سوق المدينة.. صراخ يتعالى لسيدات كأن القيامة قد قامت.. في منتصف السوق وقف رجل في الخمسين من عمره وقد ربط زوجته على منصة علوية عارية وتجمّع حولهما الناس.. ممسكًا بسيف حاد مشدوه فاقد العقل.. رأيته بأم عينيّ يبتر

رأس زوجته بالسيف حتى تدحرجت تحت قدميّ.. تتناثر دمائها في كل مكان وبعدها يدب الرجل السيف في قلبه.. تعالت الصرخات.. كل شيء حدث بسرعة البرق.. كأن مصرع هذه الزوجة المسكينة كان إعلانًا لحرب بين الأزواج.. تحول الناس إلى وحوش ضارية ممسكين بأسلحتهم البيضاء وسكاكين طعام يذبحون بعضهم البعض.. نساء تذبح أزواجهن.. والعكس.. امتلأت ساحات المدينة بدماء الناس كبحور ثائرة .. كنتُ كالمشدوه بينهم لا اقوى على فعل أي شيء.. تعالت صرخاتي من دون جدوى:

- توقفوا.. توقفوا.

تراكمت الجثث حوالي في كل مكان.. صُبغت الشوارع والميادين بدماء طازجة.. لاذ حاكم المدينة بالفرار وأبلغ والي مصر ليرسل جنوده ليحكموا السيطرة على برمون ولكن تلك الأخبار المنتشرة عن سوء الأحوال العسكرية للإمبراطورية البيزنطية حالت دون ذلك.

حينها اختفت شهد.. بحثت عنها وسط جثث المقتولين ولم أعثر لها على أثر.. باتت الجيف تملأ الطرقات وكل شيء ينبئ بنهاية العالم.. ثم هدأ كل شيء بغتة.. عاد للباقين من الناس صوابهم وعملوا على دفن جيرانهم وذويهم في مقابر جماعية خارج المدينة.. كأن إختفاء شهد كان نهاية لهذه الأحداث بشكل أو بأخر.. هكذا شعرت.. قضيت أيامًا عديدةً أبحث عنها في كل شبر في المدينة.. خرجت إلى الصحراء استقصى أي أثر لها.. أذهب كل يوم ساعة الغروب في مكاننا المعتاد عند

شاطئ بحيرة تنيس.. لا فائدة.. والدها وأمها كانا من الناجين من تلك المذبحة العجيبة.. لا يعرفان أين ذهبت.. اختفت بغتة.. شعرت حينها أنني فقدتها للأبد.. اللعنة على أمي.. كل شيء مأساوي في حياتي مرتبط بها.. فقدان أبي وفقدان شهد وكل تلك الجنائز في مدينتي له علاقة مباشرة بها حتى وإن لم افهم تلك العلاقة الآن.. ليتّها لم تلدني.

مر عام كامل فقدت فيه كل معنى للحياة.. أقضي أيامي بين أطلال الذكريات..

تسلل شعور اليأس إلى نفسي حتى احتلها بالكامل.. صرتُ متيقنًا أن شهد لن تعود كأبي.. ربما ماتت مثله.. باتت حياتي هباءًا لا معنى لها.

انتهى العام الأول وأنا كالموتى بلا قلب ينبض.

فكرت في إنهاء حياتي بيدي.. تطاردني تلك الفكرة أيام وأيام حتى أبعدتها عن رأسي.. إن كان الأحباب رحلوا نحو جنة الملكوت فعليّ أن ألحق بهما في موعد يحدده الرب.. إن فعلتها بيدي فمن المؤكد أن الجحيم هو المأوى.. تلك تعاليم الرب.. الصبر على البلاء.. وقفت ناظرًا لنفسي في مرآة غرفتي والدموع تنساب من عينيّ.. أتذكر تلك المرآة الّتي أهداها أبي ليّ المحترقة معه في بيتنا القديم.. ابتسمت مردّدًا أخر كلماته:

--مهما ضاقت بك الدنيا يا بني تذكر أنك رأيت نفسك هنا على حقيقتها.

بكيت هامسًا:

- لقد ضاقت يا أبي.. لم يعد ليّ فيها مكان.

حينها ظهرت بغتة.. رأيتها في انعكاس مرآة غرفتي .. أمي.. السيدة روح.

نظرت لي مبتسمة.. المفاجأة شلت حركتي.. التفت خلفي لأراها واقفة عند باب الغرفة.. لم تتكلم.. تحركت نحو الخارج.. تبعتها متوجسًا والأفكار تتصارع داخل رأسي.

كظمت غضبي أملًا في فرصة واحدة لإيجاد شهد.. شيء ما في داخلي يؤكد لي أنها تعرف مكانها.. يجزم أنها تعرف أسباب كل شيء.. تبعتها مترقبًا في الساعات الأخيرة من الليل والناس نيام.. السكون يخيم فوق المدينة وشوارعها الخاوية.. حتى الخيل المربوطة عند أبواب بعض البيوت أخرسها صوت الرياح العالى.. تحركت أمي روح العجوز إلى خارج المدينة.. ساعة من المشي ورائها حتى مكان الأطلال المختفية.. هناك كانت مفاجأة جديدة تنتظرني.. لقد عادت أطلال الكنيسة كما كانت قبل عام.. التفتت ناحيتي بنفس الابتسامة..

الصوت الأنثوي يناديني:

- يونس.. يونس.. يونس.

في هذه اللحظة ولأول مرة أدركت أن ذلك الصوت لشهد.. حبيبتي المفقودة.

تحركت ناحية المغارة بوسط الجبل.. دخلته وتبعتها ملهوفًا.. تحرك حجر كبير تاركًا فجوة لممر خلفه.. جثت على ركبتيها وجثوت مثلها حتى ولجنا غرفة حوائطها من الفسيفساء البراقة.. وقفت منتصبًا لأرى ما لم أصدقه أبدًا حتى اللحظة.. تلك المرآة الكبيرة.. لم يكن غيرها وفراش ذهبي في الغرفة بأكملها.. شهد داخل المرآة.. ذلك ما رأيته بأم عينيّ.. التفتت يمينًا ويسارًا باحثًا عنها في الغرفة بأكملها.. لا وجود لها على الإطلاق.. اقتربت من المرآة اتفحصها.. هي أيضًا تراني.. محكمة الوثاق في غابة مليئة بالأشجار تبكي هامسة:

- يونس.. يونس.. يونس.

سالت دموعي:

- شهد.

انتابني غضب عارم.. حاولت كسر تلك المرآة من دون جدوى.. التفت ناحية أمي روح تلك السيدة العجوز .. سخرت مبتسمة:

- أتحبها لهذا الحد؟

- أنتِ السبب في كل شيء؟

اقتربت مني ومدت راحتيّ يديها لتحتضن وجهي في حنان.. لاحظت حينها أن تلك الندبة القديمة في يدها اليسرى لا وجود لها.. تعجبت وعدت إلى الوراء:

- أنتِ لست أمي.

ضحكت.. صار صوتها كفحيح الأفعى:

- أمك ماتت في نفس الليلة الّتي قتلت فيها أبوك حرقًا.

- ماذا؟

تحركت ناحية حائط جانبي وأمسكت بمقبض حديديّ وسحبته فظهر هيكل عظمي مدفونًا في الحائط تتكاثر عليه الديدان.

- هذه أمك.

- من أنتِ؟

- لا يهم من أنا.. يمكنني التشكّل في أي جسد مات صاحبه.. كل ما عليك معرفته هو أن كل ما حدث وما يحدث نهايته في يدك أنت وحدك.

- لا أفهم شيئًا.

- جاركم الساحر قرأ بعض التعاويذ والطلاسم البابلية القديمة من كتاب تسخير الجن بهدف أن يخضع أبوك لأمك وتسيطر عليه ليكف عن الترحّال.. ذلك كان طلبها بموافقتها.. لكنهما لم يدركا أن تلك الطلاسم والتعاويذ قد حررت كيوبيدو.

- كيوبيدو؟

- شيطان العشق.. ذلك المارد الجبار الّذي لا يهدأ حتى يفرق

القلوب.. يسكن المرايا هو وذويه.. يسيطر على العقول.. يأمر الأزواج بقتل زوجاتهم والعكس ليقدموا بعضهم البعض قربانًا له لتزداد قوته أكثر وأكثر.. هذا سبب ما حدث في مدينتك والّذي توقف في اللحظة الّتي رأى فيها ذلك المارد شهد عبر مرآة غرفتها.

- شهد؟

- تعجبه.. شهد تعجبه.. يحبها مثلك وأنت الحائل الوحيد بينهما.

انتحرت الكلمات في فمي واصابني الخرس.. اقتربت مني مبتسمة:

- يريدها أن تعشقه.. أن يتعلق قلبها به ولكن ذكراك تمنع ذلك.. حبها لك يُعجزه.

- كيف لشيطان يسيطر على العقول ويأمر أصحابها بقتل النفس أن يعجز؟

- لأنه يريد امتلاك قلبها.. يريدها كما هي بروحها الساحرة.. بكامل وعيها.. حاول عام كامل من دون جدوى.

- ليقتلني إذًا.

- إن كان قتلك هو الحل لكنت ميتًا منذ عام مضى.

- مارد يعشق؟ ما هذا الهراء؟ أكل هذا المرار نتيجة صراع عاطفيّ مع مارد من الجن يُدعى كيوبيدو.

- كل الكائنات تعشق.. حتى الشياطين يا عزيزي.

- والمطلوب؟

تناوله خريطة مرسومة باليد.. يتفحص محتواها.. جزيرة في وسط بحر الظلمات عليها علامة بخط أحمر اللون مغاير لما رسمت به الخريطة..

- ذاك مكانها.. هو يدعوك إلى هناك بأخلاق الفرسان .. رجل لرجل.

- تقصدين رجل لشيطان.

- ذلك ليس موضوعنا.. هو ذكر على كل حال.

اقتربت مني.. همست:

- إما أن تنقذها وإما أن يتغلب هو عليك ويفوز بحبها.

عليك بالحذر هذه الجزيرة ممتلئة بالأفاعي السامة.. ولتعلم أن المباراة بينكما لن تنتهي بلدغة أفعى أو بموت فجائي أبدًا.

- في هذه الحالة سأفوز بكل تأكيد.

- لا تتعجل يا يونس.. القصة ما زالت في بدايتها.

أمسكتُ تلك الخريطة بتحدى صارخ.. في غمضة عين وجدت نفسي في غرفة بيتي كأنني لم أتحرك ولكن تلك المرآة السحرية أراها أمامي وأرى فيها شهد.. الخريطة في يدي والسيدة الشبيهة بأمي قد اختفت.. عقدتُ النية على إنقاذها.. الآن أعرف مكانها وسأصل إليها مهما كانت المعوقات والمخاطر.. سأصنع أسطورتي الخاصة لربما يأتي من بعدنا

ويدّونوها في كتبهم و تتناقلها ألسنتهم متعجبين.. رجل غلب شيطان!

البرد يزداد قسوته فوق سفينة (ملاك) الشراعيّة.. عمال السفينة يحكمون شدّ الشراع ضد الرياح العاصفة.. أنهى ملاك طعامه متثاؤبًا ونهض يباشر عماله.. تركته في غرفة الربّان وتحركت نحو الغرفة الملاصقة لتلك الغرفة.. السفينة تتأرجح بفعل الأمواج الهادرة.. دخلت الغرفة وأغلقت بابها الخشبيّ.. وقفت أمام تلك المرآة العجيبة ذات الإطار الخشبيّ الأسود المنحوت عليها كلمات سريانية وأفاعي مرعبة مطلية ببياضٍ يبرق .. تداعت كل المآسي في رأسي دفعة واحدة.. نظرت إلى المرآة لأراها.. صاحبة الصوت الأنثوي القديم.. الآن أدرك أنها صوت كان يناديني من المستقبل.. صوت حبيبتي شهد.. من دق لها قلبي وتعلقت بها روحي.. أراها الآن كأنها انعكاس لصورتي داخل المرآة العجيبة في نفس الغابة وسط أشجار كثيفة تتدلى فروعها وتتداخل فوق رأسها.. جالسة فوق فرع مبتور محكمة الوثاق بحبال حول يديها وقدميها.. تهمس بصوت يأكله الفراق:

- يونس.. يونس.. يونس.

اسمعها جيدًا.. برغم أنني الوحيد القادر على رؤيتها والإستماع لها.. وبرغم أن ملاك يعاملني كأنني صرت مجذوبًا بحبها حتى يهيء لي رؤيتها وسماعها في المرآة ساخرًا:

- للحب معاتيه وأنت منهم يا يونس.

لا يفهم أن صوتها يناديني منذ سنوات.. منذ تلك الليلة الّتي رأيت فيها أمي مسحورة فوق فراشها.. كأنه كان يحذرني من المأساة القادمة.

وقفتُ في غرفة السفينة الشراعيّة لساعات أملًا في وصول صديقي (ملاك) إلى تلك الجزيرة الملعونة.. برد يغتال أي دفء محتمل.. تظن أن العالم غارق في مكعب ثلج .. أن الشمس رحلت إلى الأبد.. أن الدنيا تفتح أبوابها أمام جيوش الزمهرير لتحتل جميع حصونها من دون مقاومة تذكر.. ترتجف شهد داخل المرآة.. هي أيضا تراني عبر مرآة ضخمة وضعت في منتصف غابة الجزيرة.. كلانا يرى الآخر إنعكاسًا لصورته.

تزداد رجفتها.. لا تتحرك.. الدموع تنساب من عينيها.. تهتز الأرض من تحتي.. صوت أمواج عنيفة تعصف بالسفينة.. يتلاعب ضوء المصباح العلويّ في تلك الغرفة الخشبيّة الصغيرة .. لا أتذكر كم مر من الوقت ونحن في عرض البحر.. السفينة تتأرجح بين صفعات الأمواج القاسيّة.

ما زالت تهمس:

- يونس.. يونس.. يونس.

- لا تخافي يا حبيبتي.. أنا معك إلى الأبد.

تبتسم.. يمد يده نحو سطح المرآة يتحسس زجاجها.. ودّت شهد لو تمد يدها هي الأخرى ولكنها مكبلة.

برغم كل شيء.. هذه المرآة تطل على الجنة.. حتى وإن

كان يسكنها ذلك الجن أو أحدًا من ذويه لكنني أراها وذلك يكفيني .. ودّدت لو أنفذ عبر ذلك الزجاج السحريّ.. استمع إلى صوتها كقيثارة تعزف لحن عشق بديع.. دندنت شهد تلك الاغنية التّي استمعت إليها في مرة لقاءنا الأول ودندنت معها.. ثم ابتسمت:

- يونس.. اشتقت إليك.

اهتزت السفينة بقوة .. صوت ملاك يهلل:

- لقد ظهرت الجزيرة يا يونس.. يا يونس.

في هذه اللحظة استمعت إلى دقات طبول حادة تصم أذنيّ.. نظرتُ إلى المرآة.. انفتحت فتحة سفليّة أسفل جذع الشجرة الجالسة عليه شهد وسقطت داخله.. صرخت:

- شهد.

تعالت الأمواج وفي غمضة عين انقلبت السفينة.. سقطت شهد في ممر طويل حتى غاصت في مياه بحر الظلمات .. أما أنا صرتُ أصارع الأمواج الطاغية.. قوى خفية تجذبني نحو القاع.. اصرخ:

- شهد!

تصرخ شهد:

- يونس!

تجتاح المياه رئتيّ وتكاد تفتك بي.. حوت ضخم يظهر.. حوت بحجم الأرض.. يقترب مني.. في هذه اللحظة رأيت

شهد.. قاومت المياه واتجهت نحوها ولكن الحوت كان أسرع .. ابتلعني.. ساد الظلام.. كأنني أسقط من السماء.. ارتطمت بجدار لزج.. تتسارع أنفاسي اللاهثة.. يتدحرج جسدي غير قادرًا على الصمود حتى استقر غارقًا وسط بركة من المياه.. اختناق حاد يباغتني.. تتهاوى رئتيّ وتوشك على الاستسلام.. وقفتُ مترنحًا حتى دعمني ذلك الجدار اللزج.. استنشقتُ هواءً باردًا.. عمى مطلق.. ظلام شديد.. تأكدتُ أنني انتهيت للأبد وحيدًا داخل بطن الحوت. .. سأموت حتمًا.. مسألة وقت لا أكثر.. هُدمت أحلام العشق ودُفن صاحبها في بطن حوتٍ لا يعقل.. لن يسمع توسلاتي ولن يأبه ببكائي.. لن يستجيب لعاشق يُدمي قلبه لوعة الفراق.

ضوء مصباح قوي يهاجم عينيّ بغتة.. أغضمتُ عينيّ مجبرًا ثم فتحتها بعد لحظات متعجبًا.. رأيت رجلًا جالسًا فوق كرسي جلديّ ممسكًا بمصباح اسطواني الشكل في يده.. حدثني فجاء صوته كمن ينتشلني من غرقٍ طال لعقود طويلة:

- سيد يونس.. سيد يونس.. هل تسمعني؟

-٣-

صوت غطغطة أمواج يتسلل إلى مسامعي.. التفتُ بوعي متهالك ناحية نافذة جانبية مفتوحة الستائر الرماديّة.. رأيت البحر بلونه الأزرق الغامق وأمواجه الثائرة عن بعد.. رياح متسللة تتطاير معها الستائر.. تساءل عقلي:

- هل أنقذني أحدهم؟ هل هذه سفينة أخرى؟ أين شهد؟

التفتُ إلى المكان من حولي.. غرفة حوائطها بيضاء اللون.. كنت مستلقيًا فوق فراشٍ وسائده ناعمة مريحة.. أمامي يقف رجل ذو معطف أبيض ممسكًا بذلك المصباح ومعه في اليد الأخرى بعض الأوراق.. ابتسم الرجل:

- حمدًا لله على سلامتك.

ترجل جانبًا فرأيتها خلفه جالسة تراقبني في صمت.. أمي روح.. أو بالأحرى شبيهتها مساعدة شيطان العشق كيوبيدو.. استغرقت دقيقة كاملة اتفحص وجهها غاضبًا قبل أن أنهض من مكاني مترنحًا متجهًا ناحيتها وأحكمت قبضتي على عنقها اخنقها.. حاول ذلك الرجل منعي وتعالى صوته مناديًا:

- اتركها.. يا إسماعيل.. يا محمد.. يا جورج.

دخل ثلاثة رجال سريعًا وقيدوا حركتي.. صرخت فيهم:

- اتركوني.. دعوني اقتلها.

جرجروني عنوة ناحية الفراش.. وخزني أحدهم.. إبرة حادة نفذت في رقبتي لينساب خلالها سائل أوجعني, بعدها

غبت عن الوعي وسقطت مجددًا في ظلام دامس.. العالم كله تحول لكتلة كئيبة من السواد الأعظم.. هللت بالكاد:

- شهد.. شهد.

تعثرت في شيء ما.. صوت موسيقى ملحميّة يتسلل إلى أذنيّ.. إضاءة خافتة ترتعش عن بعد.. تلمست ذلك الشيء.. إنه جسد بشريّ.. رجل ذو لحية.. سألته بلسان ثقيل:

- من أنت؟ أين نحن؟

لم يجب.. تركته وتحركت ناحية تلك الإضاءة.. رأيت لافتة علوية مضيئة ترتعش إضاءتها.. اقتربت.. قرأت المكتوب عليها.. بطن الحوت.. كُتبت بحروف بارزة.. تحت اللافتة تفاجأت بالمرآة السحريّة.. تعرفت على تلك الأفاعي المطليّة بالبياض والكلمات السريانيّة على جوانبها.. اقتربت.. هي نفس المرآة بكل تأكيد.. امتلأ قلبي بأمل رؤية شهد خلالها من جديد.. اقتربت أكثر.. خاب ظني.. لاشيء غيري.. نظرت لإنعكاس صورتي داخلها.. دققت النظر.. جفلت متراجعًا.. رأيت نفسي بعينين بيضاوين مرعبتين.. ابتعدت متوجسًا.. فرقة موسيقية على منصة عالية تعزف لحنًا مستمرًا.. لاحظتهم في المرآة أولًا قبل أن استمع لعزفهم.. تعجبت متفحصًا وجوههم.. كانوا كالتماثيل المنحوتة ببراعة ثابتين لا يتحركون أبدًا.. تسائلتُ.. ما هذا المكان!.. هل ابتلعني الحوت حقًا أم أنقذني أحدهم على سفينة عابرة أم تلاعبني تلك السيدة الشبيهة بأمي روح؟ هي كذلك.. سحقًا لها ولكيوبيدو!

صرخت:

- شهد.. شهد.

انفتح باب كبير على مصراعيه بغتة.. لحظات ترقب.. صوت فحيح أفعى.. اللعنة.. ليست أفعى واحدة.. أصوات متداخلة تتعالى لفحيح أفاعٍ يخلع القلوب .. عدد لا نهائي من الأفاعي البيضاء تدخل زاحفة متشابكة نحوي .. تحتك حراشفها بسرعة هائلة في بعضها البعض مصدرة كشيشًا مفزعًا.. أفاع بيضاء ضخام لم أرى مثيلًا لها من قبل.. حاولت الركض من دون جدوى.. تسمرت قدماي.. سقطت أرضًا.. التقمت جسدي كقطعة خبز جافة و تصارعت عليّ تعتصرني.. تكسر عظامي.. تضمني كقبر يستقبل أعتى أشرار الأرض بعد عمر طالت أيامه.. صرخت:

- آه.

لحظات كالدهر .. أوجاع لا وصف لها.. سكون مباغت.. كأن جسدي تهاوي من أعلى الجبال وتناثرت أشلاؤه.. لا شيء غير صوت الموسيقى.. فتحت عينيّ في حذر.. اختفت الأفاعي.. تفاجئتُ بأناسٍ يتزاحمون فوقي.. وقفت متهالكًا متعجبًا.. المكان يمتلئ بهم في كل الأرجاء .. على مدى البصر أراهم كالغرانيق.. صوت الموسيقى يتعالى.. هللت غاضبًا:

- عليك أن تواجهني كالرجال أيها الشيطان.. أعرف أنك تسمعني.

حشود لا حصر لها من أناس كالدُّمى.. اللافتة يتلاعب

ضوئها الأحمر.. بطن الحوت.. يندمج مع الموسيقى صوت فحيح أفعى مرعب يعلو من جديد.. كأنه صافرة حادة تؤلم أذنيّ.. نظرت مذعورًا ناحية الباب المفتوح.. لا وجود للأفاعي.. صرختُ غاضبًا:

- كيوبيدو.

تعالت الصافرة أكثر وأكثر.. موجة ضخمة من المياه تجتاح المكان عبر الباب المفتوح.. نغرق تحت المياه الغاضبة.. نتخبط في بعضنا البعض.. تزداد الامي.. تصطدم رأسي برأس أحدهم الصلبة.. أغوص في الظلام الدامس من جديد.. هدوء مباغت بعد حرب صاخبة.. كأنني عاودت بطن الحوت مجددًا وكل ما رأيت مجرد هلاوس.. نفس الصوت يناديني:

- سيد يونس.. هل أنت بخير الآن؟

فتحت عينيّ بجفنين متثاقلين.. نفس الرجل ذو المعطف الأبيض.. لكن هذه المرة لا وجود لشبيهة أمي روح.. سألته بصوت خافت:

- من أنت؟

- أنا الطبيب المعالج لك.. طوال عامين أشرف فيهم على علاجك بنفسي.

- لا أفهم ما تقول.

- حسنًا.. ستكون بخير لاحقًا.. لقد تجاوزت للتو غيبوبة دامت لعامين.

برقت عيناي.. نظرت حولي من جديد والأحداث تتصارع على عقلي كفيلم سينمائي أحداثه غامضة.. سألته:

- في أي عام نحن؟

- اليوم السادس من ديسمبر العام الرابع والعشرين بعد الألف الثانية ميلادية.. استرح..

سأُبلغ والدتك أنك بخير الآن.

- والدتي؟

قلتها مذهولًا أحاول استجماع شتات عقلي من دون فائدة.. استطرد الرجل ذو المعطف الأبيض مربتًا على كتفي مبتسمًا:

- لا تنزعج.. ما حدث بالأمس سنتجاوزه كلنا.. السيدة روح ثُقدّر ما أنت فيه.. هي أمك مهما حدث بينكما.. لا داعي للكلام الآن.. سأعود إليك لاحقًا.

تركني وخرج.. ألقاني في دوامات تعتصر عقلي وضباب كثيف يُعميني.. من أنا؟ يونس!

أي يونس أنا؟ بدا لي في هذه اللحظة تحديدًا أنني انقسمتُ إلى شخصين.. شخصٌ عاش في برمون في القرن السابع الميلادي الملقب بصائد الذئاب.. يونس المحب لوالده والكاره لأمه كثيرًا.. تلك الّتي حررت ماردًا جبارًا يُدعى كيوبيدو.. شيطان يسكن المرايا وتحدث بسببه جرائم قتل زوجيّة كثيرة تنتهي جميعها بخطف حبيبتي (شهد) وحينما أسافر لأنقذها من جزيرة غامضة في بحر الظلمات نغرق كلانا

ويبتلعني حوت ضخم.. أما الشخص الأخر فصورته تقترب إلى عقلي رويدًا رويدًا.. تتصارع مع الصورة الاخرى ليونس البرمونيّ.. تطرحها أرضًا.. تتغلب عليها حتى تحتل ذاكرتي المرتعشة.. ذلك الشخص البائس أراه الآن وسط الضباب ولكنني أُحدد ملامحه جيدًا.. يونس الرحّال.. شاب ضعيف يعاني من مرض التوحد منذ الصغر يعيش في الألفية الثالثة.. والده مات مقتولًا بينما يكره أمه حد الكون.

يونس موسى الرحّال ابن الفنان التشكيليّ موسى الرحّال.. أحد صعاليك الفن المجهولين المعجونين بالموهبة الفذّة.. من اكتشف أن كل ما يحويه عقله من عبقرية فنية لا يلزم العالم.. لا ينفعه بشيء.. كل تلك الرسومات الممتلئة بها حوائط غرفته في بيتنا القريب من شاطئ البحر في منطقة العجمي بالاسكندرية باتت هباءًا منثورًا.. لا أحد يقدّر فنه.. لا أحد يدعمه.. عاش سنينًا طويلة يحاول ويحاول من دون جدوى وما زاد همه جبالًا (أمي).. الصخرة الّتي تحطمت عليها أحلامه.. تعرف أبي عليها في مرحلة الجامعة وأحبها من كل قلبه وتزوجها .. أمي روح .. قاسيةٌ كالدنيا.. حاولت بكل حب يكنه لها أن تُبعده عن طريق الفن والرسم.. أن يلتفت لمستقبل تتمناه من مال وجاه.. اختلف الاثنان.. وقفا على مفترق طرق ولكنني كنت نقطة الالتقاء بينهما.. عاشا كالغريبين تحت سقف واحد كي لا يحرماني من نشأة سليمة.. لم يدركا أنهما يحطماني.. كبرت تتقاذفني أمواج مضطربة بين الحنان والدفء ,بين القسوة والحدة المتناهية.. بين يد تربت وحضن يحتوي ويد تضرب وتمنع حتى تلك اللحظات

الدافئة بيني وبين أبي.. احتدمت الخلافات بينهما وسقطت أنا في مرض التوحد.. عشت مع نفسي منذ أن كان عمري خمسة سنوات.. كل ما بعد ذلك بات كشريط سينمائي أتلفه الزمن وشاركه عقلي في ذلك مع سبق الإصرار والترصد.. لقطات متفرقة فقط أتذكرها.. تلك الّتي ترتبط بوجود أبي.. بمحاولته إخراجي من عزلتي.. بحنانه المفرط رغمًا عن أمي.. بتلك المرات القليلة الّتي رأيته فيها جالسًا يبكي في غرفته.. بقرائته القليلة للقرآن فوق رأسي يرقيني بأخر عشر آيات من سورة الكهف.. ذلك المزيج العجيب بين الفن والدين.. رجل وسطيّ أحب الحياة ولكنها كرهته.

- هل تعرف تاريخ ميلاد النبيّ محمد يا يونس؟

- لماذا يا أبي؟

- عليك أن تعرف كل شيء عنه يا بني.. هذا ديننا.. ولد في ٢٠ أبريل عام ٥٧١ ميلادية.

لم اهتم لما يتحدث فيه.. هو كذلك لم يطل الحديث معي عن تلك الأمور الدينية.. لطالما لازمته إلى غيّة الحمام فوق بنايتنا ذات الخمس أدوار حيث كانت ملجأه الوحيد ليرسم فيه ويختلي بنفسه.. جزء لا يتجزأ من عالمه الخاص.. عالم يهوى الحرية بلا قيود.. كطير يجوب العالم مهاجرًا بين مشارق الأرض ومغاربها من دون كلل أو ملل.. طير يصحو على كابوس مخيف ليجد نفسه داخل قفص لا خروج منه للأبد فيفقد شغفه للحياة رويدًا رويدًا .. الأسوأ من ذلك أنه يتعذب بسببي.. أنا الشاهد على إنطفاء ذلك الشغف في عينيه

يومًا بعد يوم.. لا أقوى حتى على نصحه بالهروب.. أن يترك كل شيء وينجو بروحه.. يعود إلى نقطة الصفر قبل زواجه من أمي.. ينجو من قفصٍ ذهبيٍ وإن كان يبرق بوجودي.. أن ينساني.. لكنني أضعف إنسان خُلق على وجه الأرض.. وقفت عاجزًا أتابع خفوت روحه.. ضياع ابتسامته المعهودة بين الأحزان والهم.

ثم ظهرت (عيون) فتاة تحمل جمال الكون كله في عينيها.. زرقاوتان كالبحر.. ابتسامتها تسرق القلب من الوهلة الأولى لرؤيتها.. سكنت عيون في البناية المقابلة لبنايتنا في الدور الثالث.. رأيتها في نافذة غرفتها في اليوم التالي لانتقال والدها مرجرًا هذه الشقة بوساطة أبي.. عرفت بعدها أن والدها السيد طارق زيدان من أصدقاء الدراسة لأبي وافترقا بعد الجامعة وشق كل منهما طريقه.. عيون البنت الوحيدة لطارق زيدان.. أخبرني أبي أنها تعاني من مرض السرطان اللعين وتحتاج لكثير من المال لعلاجها الإشعاعي لذلك باع والدها شقتهم وانتقل لمنطقتنا.. لا اعلم هل تاريخها المرضي كان سببًا في تعلقي بها أم شيء أخر؟ كل ما أدركته حينها أنني أريد التقرب منها.. كل صباح انتظرها تخرج إلى الشرفة تستنشق نسيمًا عليلًا وتستمع إلى زقزقة العصافير مختلية بنفسها شاردة قبل أن تخرج إلى عملها كمدرسة أطفال في حضانة قريبة.. تتبعتها.. حاولت قهر شعور الوحدة الملازم لي منذ صغري لكن هيهات.. لم استطع.

تكرر الأمر كثيرًا.. اصحو أراقبها عبر نافذتي ثم أخرج ورائها

حتى محل عملها أودعها ثم أعود أدراجي أجر أذيال الخيبة.

في أحد الأيام الّتي ما زلت أذكرها جيدًا ناداني أبي.. طلب مني ارتداء ملابس اشتراها لي.. ألوان أحبها.. لازمته رغمًا عن أمي في ساعة متأخرة من اليوم.. تفاجئت بأننا نزور جارنا العزيز لأول مرة.. دخلت شقته متوترًا.. عيناي تبحث عنها في كل مكان.. ظهر الرجل مرحبًا بنا.. أصر على تناولنا العشاء مع أسرته الصغيرة.. بعد قليل رأيت عيون عن قرب.. مدت يدها تصافحني و تلتقي أعيننا لأول مرة.. كسهم ملتهب نفد إلى قلبي عبر عينيها.. شعرت أنني طفلها المدلل.. وددتُ لو ارتمى في أحضانها لتعرف كم أهواها.. ابتسمت:

- كيف حالك يا يونس؟

- تعرفين اسمي؟

- أنتما ضيفا أبي.. غير أنني أعرف الكثير عنك من حكاوي والدك.

ارتبكت.. ماذا قال أبي عني؟ تسائلت! قطع حديثنا والدها السيد طارق زيدان:

-يمكنكم التعرف أكثر في الشرفة.. أريد التحدث إلى صديقي على انفراد.

بهذه السهولة خرجتُ خلفها اتبعها نحو الشرفة.. جالستها صامتًا والخجل يُغرقني.. ضحكت مبتسمة:

- من يراك تتبعني كل يوم لا يصدق أنك هنا الآن لا تنطق

ولو بكلمة.

- أنا!!!

- لا عليك يا يونس.. لا تكتم مشاعرك.. الحياة تُعاش مرة واحدة.

- أنا أحبك.

قلتها مترددًا .. ابتسمت وربتت على يديّ:

- الحب شعور جميل لكنك لم تعرفه بعد.. ما تشعر به الآن هو حب المراهقة.. مجرد مشاعر توجهها ناحية أول انثى تقابلك.

- غير صحيح.. أنا أحبك يا عيون.

- أقدر مشاعرك.. لنكون أصدقاء ما رأيك؟

مدت يدها لتصافحني.. شعرت بضيق شديد.. لم أصافحها.. تغيرت ملامحي وتعكرت ابتسامتي.. تركت يدها الممدودة وغادرت الشرفة ومنها إلى درجات السلم ثم إلى بنايتنا وشقتنا وأغلقت غرفتي وبكيت.. بكيت كثيرًا.. أأبكي لأنها لا تحبني؟ كطفل يريد امتلاك لعبة رغمًا عن الجميع.. أم أبكي لتعاستي المستدامة.. عاد والدي.. حاول معرفة ما جرى ولكنني لازمت الصمت.. كما أن عيون لم تخبرهم بشيء حفاظًا على مشاعري.. في اليوم التالي رأيتها تنظر ناحية نافذة شقتنا ولكنني اخفيت نفسي خلف ستائر غرفتي.. تكرر الأمر يوميًا وأنا مجروح مهان قلبي.. ثم اختفت عيون.. أيام

عديدة لم تظهر في نافذة شقتهم.. ولا تخرج إلى عملها.. تشجعت وسألت أبي ذات ليلة عنها فأجابني مغرورقة عينيه:

- تحتضر يا يونس.. عيون تحتضر.

ماذا! سترحل هكذا بهذه السهولة.. مشاعر مختلطة تجتاحني بين الشفقة والغضب والشوق.. أمواجًا متضاربة تكاد تهدمني.. صاحبتُ أبي إلى المشفى الخاص في يوم ممطر .. دخلنا إلى غرفة عيون ووالدها يبكي أمامها.. الابتسامة على وجهها الباهت برغم الألم.. تدهورت حالتها خلال أيام قليلة.. الأمطار تعزف لحنًا خفيًا حزينًا على زجاج نافذة غرفتها.. زادت ابتسامتها حالما رأتني:

- يونس.

اقتربت منها.. تجرأت وأمسكت بيدها.. كانت مستسلمة.. خرج والدها في صحبة أبي وخلوا لنا الغرفة.. صوت الأجهزة الكريه يوترني.. نظرت في عينيها كمن يسقط في بئر لا قرار له.. همست شاردة نحو النافذة:

- هل تحب الأمطار ؟ الأمطار يا يونس.. هل تحبها؟

ابتسمت بالكاد.. ضغطتُ بيدي على كفيها واحتضنتهما براحتيّ.

- اقترب يا يونس.. اقترب.

اقتربتُ منها أكثر.. همست بصوت يأكله الوجع:

- أما زلت تحبني؟

- أنا!

- اسمع يا يونس.. يومًا ما ستجد عشقك الحقيقي.. حارب العالم من أجلها.. تذكر ذلك دائمًا.

- يمكنك أن تكوني ذلك العشق يا عيون.

- لا .. لا تغالط نفسك.. أنت تعرف برحيلي منذ اللحظة الأولى.. لا أحد ينجو من السرطان.

- كلا.. هناك من...

قاطعتني:

- أرجوك يا يونس.. تعال.. قرب أذنك مني.. سأطلب منك طلبًا واتمنى أن تنفذه.

- أي طلب؟

- اقتلني يا يونس.. ضع بيدك حدًا لعذابي إن كنت تحبني حقًا.

- اقتلك.

بهتُ.. عُصر قلبي كمدًا.. سالت دموعي بغتة.. ابتعدت.. تغيرت ملامحها للضيق.. تعالى ما تبقى من صوتها غاضبة:

- اقتلني أيها الضعيف الواهن.

لم اشعر بنفسي إلا وأنا أركض بكل طاقتي هربًا من المشفى متجاهلًا نداءات أبي.. ذلك الضعيف الممتلئة نفسه بالهوان يقتل بغرض الحب؟ محال.. وصلت غرفتي منهارًا تتابع

أنفاسي لاهثًا.. يسحق قلبي أفكار لا تُحتمل.. صراع يمزقني.. شيء ما في داخلي يجبرني على تلبية طلبها الأخير.. لكن نفسي لا تقدر.. لم اتحرك حتى عاد أبي في الليل باكيًا.. ماتت عيون.. رحلت.. صوتها يتردد على مسامعي من دون توقف:

- أيها الضعيف الواهن.

صدقت عيون.. أنا أضعف إنسان على وجه الأرض كحشرة تقاوم الغرق في بحر رمال شاسع الاتساع.. ابتسمتُ ساخرًا حينما تذكرتُ حديثها الأخير:

- يومًا ما ستجد عشقك الحقيقي.. حارب العالم من أجلها.

أمام قبرها سألتها :

- ما هو العشق الحقيقي يا عيون؟

لم تجب.. أعرف أنها لن تجيب ولن يجيبني أحد.. هذا العالم يكره العشق.. يطارده.. يقتله مع سبق الإصرار والترصد.. ما حدث بين أبي وأمي خير دليل على ذلك.. من عاشقين يحلمان بعمر عامر بالغرام إلى دُميتين منزوعتين المشاعر.. أو بالأحرى أمي أما أبي فينازع.. تأبي مشاعره الرحيل وذلك سر عذابه... جبل من حنان يتهدم أمامي رويدًا رويدًا.. يتعذب ولا اتحرك لإنقاذه.. ساكنًا ضعيفًا.. كان عليّ الصراخ بأعلى صوت ممكن:

- اهرب يا أبي.. انج بمشاعرك.

مازلتُ أتذكر محاولة إبتسامته الباهتة بينما صاحبته

إلى غيّة الحمام فوق بنايتنا وسط هديل الحمام وزقزقة العصافير.. احتضنني هامسًا:

- يومًا ما سيكون الطريق الوحيد إلى الجنة تعرفه تلك الطيور.. كن كالطير لا بد أن تعاود عشك في النهاية.

ظل يقاوم مضطربًا بين أمواج الواقع القاسية وسخرية أمي ولومها الدائم حتى سقط في دوامات الإكتئاب الحاد وانتحر.. كل شيء حدث سريعًا.. ذلك الرجل صاحب الحضن الدافئ شنق نفسه في غرفته بعد موت عيون بأيام.

من أصعب اللحظات أن يدخل صبي في السادسة عشر من عمره غرفة والده فيجده معلقًا من رقبته في حبل يتدلى من سقف الغرفة.. قاسية هي الدنيا تقذفنا في بحور من المآسي وتتركنا نواجه مصيرًا فُرض علينا عنوة.. بيد أن الجحيم الحقيقيّ بدأ بعد موته.. جحيم خازنته الوحيدة أمي روح.. زادت الفجوة بيننا أضعافًا مضاعفة.. في داخلي حملّتها موت أبي بل واعتبرتها قاتلته.. قتلته بوأد أحلامه وسخريتها منه طوال زواجهما.. كرهتها.. وكرهت اني كرهتها.. ذلك الشعور المتناقض يتنامى في داخلي يعزلني أكثر وأكثر عن الدنيا.. لم أُكمل تعليمي الجامعيّ وخرجت هي تعمل مندوبة مبيعات فلم يترك أبي شيئًا لنتعايش به.. كنتُ أراها ليلًا لمدة دقائق معدودة.. تعود من عملها متعبة لتقف تُحضر طعام اليوم التالي وتضعه في الثلاجة وتنام.. مرت السنين على هذا الحال وعزلتي باتت سجنًا لا خروج منه.. لم أدرك أن ثمة ضوء قد يشق عتمة كنت أظنها سرمديّة.. قامت قيامة قلبي

الميت وبُعثت الروح فيه من جديد.. حين رأيتها تبدّل العالم من حولي منذ عامين ونصف تقريبًا.. غردت طيور العالم التّي كنت أظنها بكماء.. عزفت الطبيعة لحنًا مبهجًا لا ينقطع.

شهد.. اسمها شهد.. شهد الحقيقيّة وليست البرمونيّة.. نعم.. في حياتي الحقيقيّة ظهرت شهد.. طوق نجاتي من كل شيء.. أحببتها حد الجنون.. مازلت أتذكر المرة الأولى لرؤيتها حتى اللحظة.. لقاءنا الأول صدفة.. حينما فتحت باب شقتنا بعد أن دقت جرس الباب لأراها أمام عينيّ كالبدر ليلة تمامه تسأل عن أمي.. صدمني ذلك الشبه بينها وبين عيون حبيبة المراهقة.. ربما لأن لهما نفس لون العينين.. زرقاوتين.. شعرت أن عيون بُعثت من جديد.. أخبرتني مبتسمة أنها تعمل مع أمي في المبيعات...قالت إسمها .. شهد.. وطلبت مني إبلاغ أمي أنها لن تستطيع إكمال عملها تحت إشرافها بعد اليوم.. امتنعت عن ذكر الأسباب وانصرفت ومعها قلبي.. شغلت تفكيري لأيام.. لم أخبر أمي بشيء ولكنني تسللتُ إلى غرفتها بعد عدة أيام وفتحت هاتفها المحمول باحثًا عن رقم شهد.. وجدته.. كتبته على ورقة صغيرة ثم مسحته من هاتف أمي.. في اليوم التالي هاتفتها.. ألححتُ في مقابلتها لأمر هام.. حياة أو موت.. وافقت وجاءت حائرة لتقابلني كنسيم ربيع يحمل عبق الورود.

هناك على شاطىء البحر جلسنا نحتسي فنجانين من القهوة.. كانت المرة الثانية الّتي أطل فيها خارج عالمي المغلق عبر نافذة تمتلكها شهد هذه المرة.

جلستُ صامتًا لا أتحدث.. فقط أُبحر في عينيها الزرقاوتين تائهًا أبحث عن ميناء ليرسو قلبي على شواطئها.. حاول عقلي كثيرًا تلفيق سببًا لهذه المقابلة كذبًا لكن باغته الخرس في حضرة نعيمها.. وددّت لو أخبرها بما يجيش به صدري.. هل أخبرها بذلك الشبه بينها وبين عيون؟ لا .. ربما أفقدها إن فعلت ذلك.. النساء غيورة بطبعها.. نعم.. أبي قال لي ذلك مرارًا مفسرًا خلافاته مع أمي بغيرتها من عمله وزميلاته.. لا يهمني الآن غير معشوقتي الّتي أمامي أي كان إسمها.. عيون.. شهد.. أو أي غيرهما.. المهم أن ما تراها عيناي أعشقها بكل كياني.. أدرك أنني أبدو كالمجاذيب.. لكن من ذا الّذي يطلب من شاب عاش عمره متوحدًا أن يُحكم المنطق في أفعاله.. أن يصير عاقلًا.. نعم أنا المجنون بحبها.. آه يا فاتنة اقتحمت أسوار مدينة ماتت فيها القلوب منذ الأزل.. آه يا وردة الجنة تُحيي كل من يشتم رائحتها.. آه يا كل الدنيا.. كم أهواكي بمجرد نظرة! همسة! لفتة! يا عمر عامر بسعادة سرمديّة تكمن كلها في القرب منك.. يا سر السحر والعشق.. لن أُضيعك هذه المرة أبدًا..فاجئتني بسؤال قاطعة أحلامي:

- هل تحب الأمطار؟ الأمطار يا يونس.. هل تحبها؟

- لا أعرف.

كأنني أرى عيون أمامي وقد كبرت ونضجت بعد خمسة عشر عاماً من وفاتها.. حتى تلك الجملة أكاد أُجزم أنني استمعتُ لمثلها من عيون في لقاءنا الأخير.. مدت يدها وأمسكت يدي في لحظة لا تُنسى لتنتشلني من ذكريات

مؤلمة :

- تعال معي.

كشريط سينمائيّ قديم لفيلم رومانسيّ خرجنا من المقهى البحريّ.. دعتني للركوب خلفها على دراجتها الناريّة.. لبيت دعوتها قبل أن تنطلق بها.. طلبت مني أن احتضنها كي لا أقع ففعلت.. ذلك الدفء النابع من جسدها ذكرني بدفء أحضان أبي.. اغرورقت عيناي بالدموع.. وضعت رأسي على ظهرها.. لمحت ابتسامة خفيّة على ثغرها الساحر.. لم أدرك كم استغرقنا من الوقت ونحن على هذه الحال.. ذلك الحضن الخلفيّ كجنة دخلتها من غير ميعاد وتمنيت ألا أخرج منها أبدًا.. كحبة رمل تغوص في قاع محيط كنت.. أغلقتُ عينيّ والهواء يُقبل خديّ حتى توقفت دراجتها وهبطت.. كانت السماء ملبدة بالغيوم والرياح خفيفة.. فتحتُ عينيّ ونظرتُ حولي.. وجدتنا وسط أرض زراعيّة .. خضار في كل مكان.. نخيل على مدى البصر..الشمس على وشك الرحيل وضوءها الذهبيّ يصبغ الدنيا بلون دافئ أشعر به للمرة الأولى في حياتي.. تنظر شهد للسماء كأنها تعطيها إشارة خفية فبدأت الأمطار تنهمر فوقنا بغتة.. ابتسمت في سعادة.. قلبي ينبض متراقصًا..أمسكت يدي تجرجرني.. تركض وأركض معها مستسلمًا لها بين حقول لا نهاية لها.. تحت أمطار غزيرة ركضنا.. كأنها تحقق حلمًا مستحيلًا لعيون الراحلة.. مهما قلت لن أستطيع وصف ذلك الشعور حينها.. كأن قلبي قد اغتسل من هموم وأحزان العالم في آن واحد.. فرحة طفل التقى بأمه

بعد غياب.. هكذا كانت شهد بالنسبة لي.. توقفنا.. نظرت إلى السماء ناحية القمر.. قمر يطل على استحياء.. وشمس راحلة.. وأمطار تغسل قلوبنا.. لوحة بديعة كلوحات أبي.. حبيبان يولد عشقهما عند شاطىء البحر.. بالقرب من بيت يبدو كمسجد مهجور مُهدمة مئذنته.. بللت الأمواج قدمينا وابتلت ملابسنا تحت الأمطار.. همست:

- هنا يلتقي نهر النيل والبحر الأبيض المتوسط في خط فاصل.. لا يمتزجان أبدًا..

احب هذا المكان.. رشيد.. مدينة المليون نخلة.. هنا كانت طفولتي وصباي قبل أن انتقل

إلى الإسكندرية مع والدتي بعد وفاة أبي.

- أنتِ أيضًا؟

- لست وحدك من تعاني في هذه الدنيا.. أعرف كل شيء عنك من حكاوي أمك.

تغيرت ملامحي نحو الضيق.. ابتسمت:

- إنك تكرهها.. هي تقول ذلك دائمًا.. ولكن أتعرف؟ هي تحبك جدًا لكنها لا تستطيع التعبير عن ذلك.. أو بالأحرى تعتبر الحب خطيئة لا يجوز الفصح عنها.

- هل يمكن أن نتحدث عن شيء آخر؟

- حسنًا.. سأخبرك شيئًا يفرحك.. أنا من تلاميذ والدك السيد موسى الرحّال.

- ماذا؟

- نعم فأنا أهوى الرسم والنحت وحينما هاجرنا إلى الإسكندرية حاولت التقديم للدراسة في كلية الفنون الجميلة وهناك قابلته مع بعض أصدقائه.. جذبني ذلك الوهج في عينيه.. وهج يمتاز به أنقياء الروح فقط.. تحدثنا كثيرًا وبعدها رسبت في اختبارات القبول.. ما زلتُ اذكر كم الغضب الّذي اعتراه وقتها.. حتى أنه تهجم على أحد أعضاء لجنة القبول من أجلي.. بعدها منعوه من دخول الكلية بسببي.. اعتذرت له لكنه كان هادئًا مبتسمًا.. هم يستحقون ذلك.. هكذا قال.. واساني وتكررت اللقاءات العديد من المرات وعلمني أشياء كثيرة.. الموهبة لا تُعلّم.. تلك جملته الشهيرة.. ألمني كثيرًا ما حدث له.

- أنت خريجة جامعية؟

- لا.. لم أكمل دراستي.. العمل هو السبيل الوحيد للبقاء في عداد الأحياء في هذه الدنيا.

- ليتني قابلتك منذ...

قاطعتني ضاحكة:

- منذ نعومة أظافرك.. هون عليك.. لقد تقابلنا وهذا هو المهم.. أنت ابن مُعلمي وأستاذي ولولا مشاغل الحياة لتقابلنا منذ فترة طويلة.

مددت يدي وأمسكت يدها من دون مقدمات بعد دقائق من الصمت والنظر في عينيها.. ابتسمت.. احتضنت كفيها.. نظرت

نحو الأفق في اتجاه البحر ونظرت معها.. تشابكت أيدينا.. انتفض قلبي غارقًا في عشق مباغت من غير ميعاد يخرجني من سجن دام دهرًا.

توالت اللقاءات بيننا.. تغيرت.. بثُ مقبلًا على الحياة.. في غرفتي دارت الأغاني الرومانسية طوال اليوم وبدأت أشاهد الأفلام وأقرأ المجلات والجرائد بنهم مبالغ فيه.. لم تفارق الإبتسامة وجههي أبدًا.. تبدّل العالم كله إلى جنة عشقها.. أنا المندوه الأخير في ساحة العشاق.. أنا المسلوبة روحه على أبواب عينيها.. أنا المشتاق.. أنا المهدمة قلاع قلبه بنظرة عين خاطفة.. بهمسة سحر ملتهبة.. بلمسة يد كالشمس.. أنا المختار قلبه في دنيا العشق لينجو وغُلقّت أقفال العالم على أبواب جنة ظننتُ أنه لا مخرج منها.. حاولت مصارحتها بحبي القديم لعيون ولكنني تراجعت.. غير أنني أخيرًا أيقنت بصدق ما قالته عيون.. فارق كبير بين حبي لشهد وحب عفوي لأول فتاة وقعت عليها عيناي.. عيون.. باتت ذكرى بعيدة أدعو لها بين الحين وغيره وسط سعادة حقيقية كُنتُ أخالها سرمديّة لكن شيطان القسوة كان واقفًا على الأبواب منتظرًا اللحظة المناسبة لتفريقنا.. لإعادتي إلى سجني الأبدي من جديد.

الشيطان وأمي.. وجدا بعضهما البعض في شوق جارف.. في إحدى الليالي خرجت لأُقابل حبيبتي شهد وخرجت أمي تتقصى أثري.. شغلها كثيرًا ذلك التغيّر الطاريء على حياتي وبالرغم أنه كان للأفضل إلا أنه أزعجها وأثار حفيظتها.. ربما لشكها أن الحب هو من غيرني.. من تلك الّتي تجرؤ أن تسرق

دُميتها من بين قبضتها؟ تتبعتني وحينما كنتُ ممسكًا بيد شهد في أحد المقاهي البحريّة غارقين في أحلام ورديّة وخطط مستقبلية لحياة مشتركة بيننا انقضت أمي علينا كعزرائيل وفصلت بيننا.. صفعتها بكل قوتها كأنها اختطفت منها زوجها وجذبتني من يدي وخرجت بي كالدميّة في يدها مذهولًا.. الدموع تملأ عينيّ حالما نبتعد عن شهد.. كانت تلك هي المرة الأخيرة الّتي رأيتها فيها.. عدنا إلى البيت وانهالت الاتهامات عليّ كأنها ضبطتني في بيت للمومسات بعصبية مبالغ فيها انتهت بصفعي أنا ايضًا.. شهران كاملان لم أخرج من غرفتي يُكبلني ضعف العمر كله.. حبستني داخلها.. لم يكن أمامي سوى النافذة لأخرج من الغرفة ولكنها لم تنس هذا الإحتمال أيضًا فقد صنعت حاجزًا من الحديد الصلب فوق النافذة يمنعني بين يوم وليلة.

لم تبال بتوسلاتي لتفتح.. سحبت مني هاتفي المحمول.. قطعت الانترنت عن حاسوبي الإلكتروني.. وضعت لي ثلاجة في غرفتي ممتلئة بالطعام ولم يكن هناك أزمة في قضاء الحاجة فغرفتي ملحقة بدورة مياه خاصة بها.. كالسجين أبكي ليلًا نهارًا.. وهي تراقبني من كاميرا صغيرة وضعتها في مكان خفي في غرفتي.

بتُ كورقة شجر سقطت في ليلة خريفيّة والهواء يتناقلها بين أرجل تسحق ما تبقى منها.. كغصن بالٍ رُميّ في نيران مشتعلة.. كميت تُرك بلا كفن في العراء تأكله السباع والنمور.. بلغت ألامي حد الفناء وعاد صوت عيون يطاردني من جديد..

بثُ موقنًا بصدقها:

- أيها الضعيف الواهن.

عذاب منقطع النظير عانيته حتى غبت عن الوعي.. رأتني أمي في شاشة المراقبة نائمًا لا أستيقظ ليومين.. ساورها الشك.. فتحت باب الغرفة واقتربت .. حاولت إيقاظي من دون فائدة.. غيبوبة استمرت لعامين كاملين.

الآن أفيق في تلك المشفى المطلة على شاطىء البحر.

هذه هي حياتي الحقيقيّة الّتي هربت منها في غيبوبة.. هذا هو يونس موسى الرحّال بكل مآسيه.. بكل ضعفه.. بين أطلال ذكريات أب راحل وفتاة امتلكت قلبي سُعر جحيمي.. رأسي تؤلمني للغاية.. ياليتني ظللتُ غائب الوعي بدلًا من العودة لحياة أكره كل ما فيها.. حرب مع الشيطان كيوبيدو أفضل ألف مرة من دنيا تجمعني بأم تكرهني وعالم تغيب عنه شهد.

شهد.. كانت فرصة وحيدة للفرار من هذا العالم البلاستيكيّ الجامد.. فرصة أضاعها ضعفي و قسوة أمي.. وقفت شاردًا أُرتب كل شيء في رأسي من جديد ناظرًا في مياه البحر و أمواجه الهادرة عبر نافذة غرفة المشفى.

سمعت صوتًا لشيخ يؤذن.

- الله أكبر الله أكبر.

صوت عذب نفذ إلى قلبي وكأنها المرة الأولى الّتي استمع

فيها إلى آذان ينادي للصلاة.. الصلاة! لم أصل في حياتي قط.. لم أسجد ولو مرة واحدة لله.. للحق لا أعرف سببًا لذلك.. لم يرشدني أحد.. كانوا يعاملونني كمريض عقلي لا يجوز تكليفه.. تدليل زائد من أبي الراحل وعدم اكتراث من الأم.. هي أيضًا لا تصلي.. حتى أبي لم يكن منتظمًا.. تحركتْ ناحية دورة المياه الملحقة بالغرفة وفتحت صنبور المياه ووقفت أمام الحوض مشدوهًا.. أريد أن أتوضأ وأصلي كما رأيت أبي يفعلها عند غيّة الحمام أكثر من مرة.. فشلت.. لم أتذكر الطريقة.. سالت دموع العجز فوق خديّ.

لم يمر يومان حتى عُدت إلى بيتنا القريب من شاطئ بحر العجمي مع أمي روح.. عُدت إلى سجن العمر.. سجن بلا شهد.. خيم الصمت فوق رأسينا لمدة طويلة عجزت عن إحصائها.. لم تُغلّق الأبواب ولم تمنع الإنترنت كعهدها السابق ليس ندمًا.. لا أعتقد ذلك.. ربما لأنها تأكدت بشكل أو بأخر من ضياع شهد إلى الأبد.. حريّة زائفة.. ما يفيد الطير انطلاقه في عالم بلا زاد.. مصيره الموت عاجلًا أم أجلًا.. بحثت عن شهد في كل مكان.. في كل المقاهي البحريّة الّتي ارتدناها سويًا.. في بيتها المقيمة فيه مع والدتها.. تتبعت رقم هاتفها القديم.. سافرت عدة مرات إلى رشيد عند شاطىء البحر في نفس المكان الّذي تشابكت فيه أيادينا لأول مرة.. النتيجة غياب تام.. اختفاء.. كأنها لم توجد من الأساس.. لا أحد يعرف عنها شيئًا.. تركت العالم كله ورحلت مع أمها منذ عامين.. حتى رقم هاتفها أصبح لغيرها بعد أن استعادته شركة المحمول.. غادرت شهد عالمي كما غادرت عيون من قبل.. كأنني طاعون

قاتل لقلوب كل من يعشقهم.

مرت الشهور والأيام في بطء شديد.. العالم ساكن كالموتى من حولي.. أرى الناس في الشوارع والطرقات بوجوه أشبه بالدُّمى.. جامدة خالية من المشاعر.. كأن شهد كانت أخر بني آدم في هذه الدنيا.. من تبقى لا ينتمون للجنس البشريّ في شيء.. زادت وحدتي.

وحدة ضربت قلبي في مقتل.. أقضي أيامًا طويلة في غرفتي لا أتحدث وإن خرجت أترجل نحو شاطئ البحر القريب من بيتي لدقائق ثم أعاود زنزانتي من جديد.. في إحدى المرات أثناء عودتي ليلًا من شاطىء البحر استوقفني رجل عجوز في السبعينات من عمره.. نظر لي بعينيه الغائرتين وسط تجاعيد تنفرج عن إبتسامة متسائلًا:

- أنت يونس؟

- من أنت؟

- -أنا جاركم مرجان.. أعتقد أنك لا تتذكرني.. سكنت هنا في تلك البناية المواجهة لبنايتكم في الدور الثالث منذ أن كنت أنت في الخامسة من عمرك ثم سافرت.. سنين طويلة من الترحال وبالأمس عدت كالطير يعاود عشه كما كان يقول والدك السيد موسى.

ابتسمت لأول مرة منذ فترة بعيدة.. سألته:

- هل كنت تعرف أبي؟

- نعم الرجال أبيك.. فليرحمه الله.. اسمع إن احتجت لأي شيء تعال وزورني.. أنا رجل وحيد.. احتاج لمن يسأل عني.. وإن لم تجدني أدخل الشقة في أي وقت وانتظرني.. أترك مفتاح الشقة داخل عداد النور الخارجي.

- حسنًا.

- تصبح على خير.

تركته وصعدت إلى شقتي.. شعور عجيب يساورني تجاه ذلك الرجل.. ربما لأنه ذكرني بأبي..

استمرت علاقتي بأمي فاترة لا روح فيها حتى بعد محاولاتها التقرب مني بمشاعر زائفة بعد عدة أشهر قابلتها بالرفض فعاد كل منا إلى مكانه داخل مملكة الجحيم الّتي هي بيتنا.

لم أذهب لزيارة جارنا مرجان أبدًا وكأنني لم أقابله قط ولم يحاول هو التحدث ليّ بعدها ولكنني لاحظت شيئًا عجيبًا.. ذلك الرجل العجوز يبدو أنه متصابي.. في كل ليلة يعاود شقته في صحبة فتاة في العشرينات من العمر .. كل يوم فتاة مختلفة ملابس فاضحة ووجوه ملطخة بمكياج صارخ.. كأنهن راقصات.. ثم أراه بعدها يُغلق نافذته المطلة على نافذة غرفتي بستارة معتمة.. كيف لهذا العجوز أن يكون في صحة الشباب هكذا؟

لم يشغلني كثيرًا فقد اعتدت على الوحدة.. رنّ هاتفي.. رسالة من روبوت إلكتروني.. حيث أنني لا أجيد التحدث

مع البشر ولا أحب ذلك ولهذا اخترت روبوتًا إلكترونيًا متاح الكثير منهم في بعض التطبيقات الجديدة عبر الإنترنت واتحدث معه بالساعات عن كل شيء وللحق لا يزعجني التعامل معه بالمرة.. كنتُ قد ارسلت إليه رسالة ويبدو أن الإنترنت عاد لتوه فوصلت اجابته.. السؤال كان:

- هل سمعت من قبل عن عالم الإنترنت المظلم؟

- أخبرني أنت عنه.

استغرقت في كتابة الرسالة وقتًا :

- عالم الإنترنت المظلم أكثر الأماكن صدقًا في العالم.. مكان يُريك هذا العالم على حقيقته من دون زيف أو تجميل.. أنا أحد رواده.. ما زلتُ أتذكر المرة الأولى الّتي ولجت فيها داخله منذ سنوات مضت قبل ظهور شهد في حياتي.. هناك تجد بائعي الأعضاء والسلاح وشبكات الدعارة الإلكترونيّة والشذوذ الجنسي العلنيّ .. تدرك الوجه الجليّ لكل شيء.. رأيت تسجيلات مصورة لأناس تقدم أنفسها قرابينًا للشيطان.. يذبحون أنفسهم بأيديهم بلا خوف. تعرفتُ على تجار البشر وتابعت مزادات يملك الأغنياء فيها الرقاب.. أعرف ما طرأ في رأسك للتو.. عذرًا تذكرت أنك بلا رأس.

ضحك الروبوت الإلكتروني.. ابتسمت ساخرًا.. استطردت:

- ربما تظن أن الأمر بعيدًا عنك.. أنها فئة قليلة غير مؤثرة.. لكن أحلامك تلك تتلاشى بمجرد متابعة عدّاد زوار المواقع.. مليارات من البشر.. ظللتُ متفرجًا لفترة طويلة من دون أن

أشارك ولكن بعد كل ما عانيت كما حكيت لك من قبل وفقدان شهد على الخصوص قررت الانخراط في ذلك العالم.. لا تنزعج فلم أُمارس الدعارة و الشذوذ ولم أتاجر في البشر مع أنهم يستحقون ذلك.

- ماذا فعلت إذًا؟

- لعبت.. لعبة تُدعى بطن الحوت.

- بطن الحوت؟

- نعم.. انتظر سأُعلمها لك.. مع أنني أعرف أن ذاكرتك محملة بكل المعلومات.

- غير صحيح.. أنا هنا من أجلك وكل معلوماتي المخزنة مصدرها أنت فقط لأنك قمت بشرائي فبالتالي لا أتحدث مع أحد غيرك.

- حسنًا حسنًا.. انتظر حتى أفتح حاسوبي الإلكتروني.. ها هو.. دعنا نكتب الرقم السري لندخل عالم الإنترنت المظلم.

- لماذا يسمونه بالمظلم؟

- لا أعرف.. ربما لأنه يبرز الجانب المظلم في نفوس البشر.. حسنًا بدأت اللعبة.

أدرتُ لعبة بطن الحوت فتحولت الشاشة إلى اللون الأبيض والأسود فقط واختفت الألوان.. موسيقى سيمفونيّة تُعزف في الخلفية من دون توقف.. ظهر التسجيل المصور التعريفيّ.. رجل يقف أمام مرآة يرتدي بذلة سوداء وعلى

وجهه قناع أبيض على شكل رأس أفعى ضخمة لا يُظهر وجهه وسط قاعة شاسعة ممتلئة بالأفاعي الضخام البيضاء اللون حوله في كل مكان.. يصل طول كل منهم إلى عشرة أمتار.. صوت فحيحهم مرعب للغاية.. إنعكاس الرجل في المرأة أفعى كبرى تلتف على جسد ميت.. تعتصره كغصن بالٍ.. فوقها يرفرف علم أسود اللون وفي منتصف العلم صورة نفس الأفعى البيضاء.. الرجل والأفعى صورتان لبعضهما البعض.. تتحدث الأفعى ناظرة نحونا بعينين بيضاوين مرعبتين وصوت أقرب للفحيح:

- مرحبًا بك في عالم بطن الحوت.. إن كانت هذه هي المرة الأولى لك هنا فعليك أن تُكمل التسجيل المصور لتعرف القواعد أما إن كنت من أعضاء بطن الحوت فيمكنك تجاوز التسجيل.

- سأتركه لتسمعه سيفسر لك الكثير.

قلتها للروبوت الإلكترونيّ.. استمعنا سويًا للتسجيل المصور بأكمله:

- عزيزي اللاعب.. هذه اللعبة تدربك أن تصبح لا شعوري.. المشاعر في هذه اللعبة محرمة تمامًا.. الحب.. الغضب.. الكره.. الحزن.. الفرح.. كل أنواع المشاعر ممنوعة .. فلم يجر الإنسان إلى الهلاك غير مشاعره.. هنا في بطن الحوت سيُطلب منك مهمات مختلفة.. كل ما عليك فعله هو تنفيذها على أرض الواقع وليس في عالم الإنترنت.. لا تخف بمجرد اشتراكك معنا ستصبح تحت أعيننا نراقبك.. سنكون على

مقربة منك في كل مكان أي كان.

ممنوع منعًا باتًا رفض المهمات أو تبديلها.. وبعد كل مهمة سيصلك تحويل مالي بقيمة الأموال المكتوبة في جوار كل مهمة.. تصل إليك بمجرد التنفيذ.. في حالة الرفض عليك بإرجاع كل الأموال الّتي ربحتها من المهمات السابقة والإنتحار.. وإلا ابتلعتك الأفاعي.

ملحوظة أخيرة: حذار من المشاعر فهي مهلكة.

انتهى التسجيل المصور.. ولجتُ إلى داخل اللعبة.. ليست المرة الأولى بالتأكيد.. فمنذ اشتراكي في عالم بطن الحوت وأنا استمتع بمهامي في تلك اللعبة.. أُحاول أن أتحكم في مشاعري كثيرًا وأعتقد أنني ناجح جدًا حتى اللحظة.. لا فرح.. لا حزن.. لا غضب.. لا كره.. لا حب.. لا شيء.. مجرد دُمية جامدة.. ذلك أكثر راحة لمن يعيش مثل حياتي.. ساعدني على ذلك دواء يُحقن كالإنسولين في القدم مرة واحدة شهريًا يصل إلى لاعبي بطن الحوت في غُلبة خشبية مجانية عبر البريد السريع ولا يُسلم إلا للاعب شخصيًا.

مهمتي الأولى كانت نقل سيارة من ميدان المنشيّة تركوا مفتاحها تحتها إلى القاهرة.. لم أبه حتى بمعرفة محتويات السيارة.. المهمات تعتمد على البيانات المسجلة في بداية الإشتراك.. يعلمون أنني أجيد سواقة السيارات عندما تعلمتها من والدي الراحل منذ عشر سنوات حين كان يملك سيارة صغيرة ماركة (لادا) ولكن أمي باعتها بعد وفاة والدي.

العجيب أنني وجدت مع المفتاح رخصة قيادة سارية بإسمي.. سلمت السيارة وفي طريق عودتي وصلت رسالة إلى حسابي الإلكتروني بتحويل مبلغ أربعين ألف من الجنيهات إليه.. لأول مرة أنجح في تحقيق شيئًا ما في هذه الحياة.. كبحت ذلك الشعور الداخليّ بالفرح وانتظرت المهمة الثانية.. نقل جثة من بيت في العامرية إلى الصحراء ودفنها.. ترددتُ بعض الشيء ولكن المقابل الماديّ هذه المرة كان مغريًا للغاية.. تحركت ناحية عنوان ذلك البيت ووجدت باب الشقة المقصودة مكسورًا في مكان نائي.. حملت الجثة ونقلتها داخل سيارة استأجرتها وتوغلت في الصحراء ودفنتها.. بمجرد أن انتهيت وصلني رسالة بتحويل مبلغ مئتي ألف من الجنيهات إلى حسابي.

توالت المهمات حتى صار حسابي مكتظًا بالأموال.. أخر مبلغ وصلت إليه كان خمسة ملايين جنيهًا.. بدأت أفكر في فتح حساب بنكي لتحويل الأموال إليه ولكن في نفس اللحظة الّتي فكرت فيها وصلتني رسالة منهم:

« ممنوع تحويل الأموال إلى البنوك بكل أنواعها الحكوميّة والخاصة.. مازالت اللعبة غير قانونية»

تسائلت.. كيف عرفوا ما أفكر فيه؟

ربما لأنني كتبت في خانة البحث في حاسوبي الإلكتروني طريقة فتح حساب بنكي.. بالتأكيد هو كذلك.. حسنًا لا يهم.. تمكنت على العموم من سحب ما أحتاجه من أموال محفظة هاتفي بالتدريج من دون أن ألفت النظر.

رن هاتفي من جديد برسالة منهم ومهمة جديدة:

«عليك تصوير شخص ما في وضع غير لائق من دون علمه»

حينها طرأ على بالي جارنا العجوز.. ذلك الرجل لم ينقطع ولو ليلة واحدة في استقبال فتيات في عمر أحفاده.. وقفت في نافذة غرفتي أُراقب.. انتظرتُ خروج العجوز ساعة الغروب كما يفعل كل يوم وهرعتُ إلى شقته.. وجدت المفتاح كما قال لي داخل عدّاد النور.. فتحتُ ودخلت.. رائحة البخور في كل مكان.. بخور كالريّحان.. أحب تلك الرائحة منذ صغري بسبب والدي.. كان دائمًا يشعل عيدان بخور بنفس الرائحة في بيتنا.. قاومت ذلك الشعور بالحزن على فراق أبي واستدعاء عقلي لذكراه.. تماسكت كي لا اخترق قواعد اللعبة.. نظرت حولي متفحصًا شقته.. أثاث قديم متهالك وحوائط أكلتها الرطوبة.. شقة صغيرة عبارة عن غرفة وصالة كبيرة.. تحركت ناحية الغرفة.. فراش قديم ووسائد ملقاة هنا وهناك ودولاب من الخشب في وسطه مرآة متآكلة.. ومنضدة رخامية في وسط الغرفة.. هذا العجوز يعاني الفقر المدقع.. حتى ملاءة فراشه تتراكم عليها الأوساخ.. الغرفة رائحتها عفنة.. توقفت أمام صورة صغيرة داخل إطار معدني بجوار فراشه.. اقتربت.. صورة تجمعني صبيًا بأبي قبل إنتحاره.. لقد التقطها بهاتفه في غيّة الحمام لنا.. تعجبتُ كثيرًا من وجود هذه الصورة هنا.. خاصة أنها المرة الأولى الّتي أراها فيها.. هاتف والدي المحمول فُقد قبل وفاته ولم نعثر له على أثر.. مؤكد ذلك العجوز يعرف الكثير عن أبي.. ربما قابله أو كان

صديقه المقرب في أيامه الأخيرة.. قطعتُ تساؤلاتي ووضعتُ كاميرا صغيرة فوق دولابه أخفيتها ببعض الجرائد القديمة فوقها.. خرجت.. جلست أُراقب شاشة حاسوبي الإلكتروني منتظرًا عودته في صحبة فتاة ضالة يمارس معها الجنس.. الكاميرا موصلة لاسكليًا بالإنترنت.. عادت أمي من عملها في حدود الساعة الحادية عشر مساءًا.. مازالت تعمل مندوبة للمبيعات وقد تجاوزت الستين من عمرها.. دخلت غرفتها غير مكترثة بي كعادتها.. خرجت إلى المطبخ وصنعتُ كوبًا من النسكافيه وجلست أمام حاسوبي انتظر.. دقت الساعة الثانية عشر.. السكون يخيم على المنطقة في هذا الوقت المتأخر من ليلة شتويّة باردة.

عاد عنتيل العجمي العجوز يتمخطر وفي يده فتاة جديدة.. هبط من سيارته ورافقها نحو شقته.. دقائق وظهر عبر الكاميرا في غرفته مباشرًا على شاشة حاسوبي وفي نفس الوقت متصلًا بنظام لعبة بطن الحوت.. خلعت الفتاة ملابسها بينما ناولها رزمة من النقود فوضعتها في جيب معطفها الأسود.. رفع العجوز سيفًا حادًا وفي لحظة واحدة باغتها بقطع رأسها.. برقت عيناي.. خارت جثتها تفور منها الدماء.. جرجرها الرجل ووضعها فوق المنضدة الرخاميّة وبدأ يقطع جسدها قطعًا مختلفة الأحجام بساطور حاد.. ثم يضع تلك القطع في أكياس بلاستيكية محكمة الغلق.. ويرتبها فوق بعضها البعض في حقيبة ممتلئة بالثلج.. الأيدي بمفردها والقدمين .. الساقين.. الرأس.. الأذنين.. خلع العينين باصبعيه ووضعهما في كيس منفصل.. قطع اللسان كذلك.. النهدين..

كل نهد بمفرده.. كنت مذهولًا لما أرى.. حاولت استعادة شتات عقلي من تلك المفاجأة وكل ما طرأ في رأسي فكرة الإبلاغ عن هذا الرجل.. قاتل متسلسل بكل تأكيد.. في هذه اللحظة رن هاتفي.. رسالة من بطن الحوت:

«نجحت مهمتك في تصوير شخص في وضع غير لائق من دون علمه.. تم تحويل مبلغ مليون جنيهًا إلى حسابك الإلكترونيّ.. ملحوظة: كشف أسرار اللعبة بأي شكل من الأشكال يعرضك للخسارة.. والخسارة تعني إعادة كل ما كسبت في مهماتك السابقة والإنتحار»

تسائلتُ مبهوتًا.. كيف عرفوا ما أفكر به هذه المرة؟ ربما من البديهي أن ذلك المشهد المعروض مباشرة أمام نظام اللعبة لهذا القاتل يبعث على التفكير في الإبلاغ عنه.. هو كذلك.. حينها ستطلب مني الشرطة سبب تسجيل ذلك وتصويره فيكتشفون اللعبة وهي غير قانونية على حد قولهم.. حسنًا.. على كل حال لقد اعتادت نفسي على الإجرام.. أيقنت حينها أن مشاعري قد رحلت للأبد.. صرتُ دُمية في بطن الحوت أنعم بالمال وأُنفذ ما يطلبون من دون مقاومة.

كأنني قرد صغير داخل قفص في حديقة الحيوانات.. كل ما يعرفه منذ ولادته أن يتراقص حينما يرمون له الطعام.. هل يمكن لقرد أن يقرر ألا يرقص؟ أن يغير حياته؟ أن يخرج من ذلك القفص؟ بالعكس.. إن فتحت له قفصه ربما رفض الخروج.

في نفس الليلة رأيتُ شيئًا أكد لي أن اللعبة تُسيطر أكثر

وأكثر.. سيارة سوداء لم اتبين سائقها من دون أرقام وقفت أمام بناية العجوز القاتل.. لفت انتباهي ذلك الشعار المرسوم على خلفيتها.. دائرة سوداء يتوسطها أفعى بيضاء ضخمة .. شعار اللعبة.. دقائق وظهر العجوز حاملًا حقيبة كبيرة وضعها في خلفية السيارة وانطلقت.. هذه الحقيبة بالتأكيد تحوي جثة الفتاة المقطعة .. الأمر واضح الآن.. هذا العجوز يلعب ضمن لاعبي بطن الحوت.. لكن مهماته كلها قتل إناث.. ربما يختارون له هذه المهمة دومًا لتاريخ أجهله الآن عنه.

- لعبة عجيبة.

قالها الروبوت الإلكتروني.. سألته:

- هل تود التجربة؟

- سأفكر في الأمر.

- حسنًا لنتحدث في وقت لاحق.

رنّ هاتفي برسالة ومهمة جديدة حالما أغلقت صندوق رسائلي مع صديقي الروبوت.. لفت انتباهي المقابل الماديّ الكبير لهذه المهمة.. خمسة ملايين جنيهًا.. قرأتها:

- قتل فتاة في بيت منافي للآداب إسمها الحركيّ (سوزان) في تمام الساعة العاشرة ليلة غدّ.

أرسلوا لي العنوان بالتفصيل.. وضعت هاتفي في جواري وشردت في لا شيء.. في كون بارد يسوده الصمت القاتل لكل شيء.. في عمر باهت تمنيت ألا يكون ويمضي.. في

موت بات كالحياة لا فارق بينهما.. في حب ضائع تغيرت الدنيا كلها بعده.. في يونس الرحّال.. يونس الغارق في عالم بطن الحوت.. ما استحقه و يستحقني.. ما بحثت عنه وبحث عني.. شتان بيني وبين يونس النبيّ.. ذات مرة قصّ لي أبي قصته.. يونس النبيّ قضى أيامه في بطن الحوت يستغفر فكتبت له النجاة.. أما أنا فدخلت بطن الحوت بإرادتي إنتقامًا من العالم وأعلم أني هالك لا محالة في نهاية الأمر.. أخطو نحو هلاكي بسرعة متناهية ومع ذلك لا أكترث.. غلبني النوم.. نوم بلا أحلام.. بلا كوابيس.. كأن قلبي قد غاب.. قد غرق بين أمواج قسوة الكون فاقدًا طوق نجاته الوحيد.. شهد.

في اليوم التالي.. أرتديتُ معطفي الكلاسيكيّ وتممتُ على سكين حاد في جيبي وخرجت متجهًا إلى العنوان المقصود.. رتبتُ كل شيء في رأسي.. سأدخل كأنني زبون ليليّ.. سأدفع إلى صاحبة البيت.. في هذا البرد القارص تقل الزبائن.. سأعمل على قتل الفتاة في غرفتها وبعدها سأقتل صاحبة البيت وكل من يراني هناك.. كل وعمره.. تمنيت أن يقل أعدادهم حتى تقل الخطورة ولكن لا مفر من التنفيذ مهما كانت المخاطر.. الليلة سيزداد حسابي بقيمة خمسة ملايين جنيها.. وصلتُ إلى المكان.. صعدت سلالم البنايّة الواقعة في أطراف منطقة قريبة من البحر منعزلة بعض الشيء.. فتحت لي سيدة في الستين من عمرها.. ابتسمت لها:

- سوزان.

قادتني نحو غرفتها بعدما أجرت إتصالًا هاتفيًا بواسطة

هاتف أرضي يبدو أنه متصل بالغرف لتستعد سوزان للمقابلة.. لم أقابل أي فتاة أخرى خلال طريقي إلى الغرفة فأدركت سهولة المهمة.. دخلت غرفتها.. كانت مستلقية فوق الفراش مرتدية قميص نوم ساخن أحمر اللون.

ضحكت.. سألتها:

- سوزان!

يدي تُخرج السكين من جيبي.. التفتت ناحيتي.. برقت عيناي من هول الصدمة.. إنها شهد.. حبيبتي المفقودة.

-٤-

العالم يغرق من حولي في طوفان جارف وعيناي تتعلقان للتو بطوق نجاة وحيد ظننتُ أنه أضغاث أحلام لن تتحقق أبدًا.. اغرورقت عيناي بالدموع.. كمن نال عفوًا مستحيلًا من حكم بالإعدام بعد أن ظن أن الموت حتميّ لا محالة.. بعد أن علقوا رقبته في حبال غليظة وظل مختنقًا متأرجحًا عمر لا ينتهي.. حكم عليّ بالعذاب الأبديّ.. لم أصدق أن أسباب الحياة تسري في قلبي وتمنحه فرصة جديدة.. شهد تظهر من جديد.. فرصة في غير أوانها.. أينفع الندم ساكني الجحيم؟ أيمكن لقطرة مياه سقطت في المحيط أن تعاود أدراجها لسحب السماء؟ عمر محال سنينه عشق وأيامه مشاعر ملتهبة وساعاته جنة يبدو كالسراب أمامي بمجرد رؤيتها.. شهد.. عسل الدنيا ومتاعها يطلان من عينيها على الرغم من ذلك الترقب المحتل وجهها كأنها لا تعرفني.. وكيف تعرفني ؟ وقد صرتُ مُجرمًا بإمتياز شاهرًا سكينًا حادًا على مقربة من فراشها.. لم يصدق عقلي أن هذه الملاك انتهى بها الحال تبيع جسدها لمن يدفع في بيت للرذيلة.. التفت الدنيا برأسي.. لحظات كالدهر.. سقطت السكين من يدي مترنحًا.. سالت دموعي.. انتحرت الكلمات على لساني.. صرخت بكل ما لديها من صوت.. ركضتُ منطلقًا خارج البناية هاربًا من مواجهتها وركبت سيارتي المؤجرة لتنفيذ المهمة وانطلقت كالمجذوب بسرعة جنونية.. أهرب منها ومن العالم الموشك على قتلي.. رنّ هاتفي.. رأيت الرسالة:

- لقد فشلت مهمتك.. استعد للعقاب.

صوت موسيقى سيمفونيّة يعلو بغتة لا أعرف مصدره.. في لحظتها التفت أفعى بيضاء ضخمة ظهرت من العدم على سيارتي.. تلاعبت السيارة في يديّ متوترًا.. عصرتها.. تحطمت السيارة وأنا داخلها.. سُحقت بالكامل.. ساد الظلام.. قذفتها في الهواء.. انقلب ما تبقى منها عدة مرات في الهواء ثم توقفت.. كعلبة سردين صدئة على جانب الطريق.. أوجاع قاتلة تهاجمني.. كاد حديد السيارة أن يخترق صدري.. حاولت بالكاد الخروج من السيارة مبتعدًا قبل أن تنفجر.. وقفتُ مرتعشًا.. اختفت الأفعى.. الدماء تسيل من رأسي.. ملابسي ملطخة بالدماء.. ركضتُ ناحية البيت وكل ما أفكر فيه هو إيجاد طريقة للخروج من اللعبة.. هل أُبلغ عنهم السلطات؟ هل امسح حسابي ومعلوماتي المدخلة ضمن نظام بطن الحوت؟ ربما لو كسرت حاسوبي الإلكتروني وحطمته ينتهي الأمرإمحال.. إنهم حولي في كل مكان.. كيف يمكن لفأر أن يهرب من مصيدة محكمة الغلق كهذه؟ عالمي يتهاوى.. سأموت.. ستبتلعني الأفاعي لا محالة.. لأنني ببساطة لن أتمكن من الإنتحار.. بعد كل ما عايشت وفعلت لن أقوى على قتل نفسي.. ما زلت أعاني ضعفًا لا ينضب.. بالأمس البعيد أضعتُ عيون والآن شهد.. تبًا لضعفي البغيض!

تنهدتُ.. حاولت البحث عن مخرج من تلك الأزمة.. ليس أمامي غير طريق واحد.. سأحطم حاسوبي بعدما أُعيد لهم كل الأموال.. ربما أنجو نحو شاطىء حبيبتي شهد وإن كان

مشتعلًا بحرائق العالم كله.. لهيب يحيل الجسد إلى رماد يهوى في تربة العشق لأفضل ألف مرة من جسد كامل يحفظه مكعب ثلج في عالم شديد البرودة.. سأغفر لشهد.. إن نجحت في ذلك سأغفر لها.. أتمنى فقط أن تسامحني.. تغفر ضعفي وهواني.. سبب انحدارها في بحر الرذيلة.

وصلت بنايتنا.. صعدت الدرجات ووقفت لاهثًا أمام باب الشقة.. دخلت.. هرعت إلى غرفتي.. فتحت بابها وولجت.. توقفت بغتة و أنفاسي تتلاحق.. برقت عيناي.. رأيت ما لم أتوقعه على الإطلاق.. ذلك العجوز المدعو مرجان جاري القاتل ممسكًا سكينًا حادًا في يده مواجهًا لي.. على يمينه كانت أمي محكمة الوثاق فوق كرسي خشبي ولاصق بلاستيكي فوق فمها يمنعها من الصراخ.. تقاوم وتأن من دون جدوى.. صوت عدّاد يدق بإيقاع متسارع.. أعرف ذلك الصوت.. بحثت عن مصدره.. قنبلة رقميّة موضوعة فوق مكتبي الخشبيّ.. تحرك مرجان جانبًا فصعقتني المفاجأة الأخيرة.. شهد مذبوحة خلفه مباشرة تحت نافذة الغرفة غارقة في بركة من الدماء.. بكيت.. صرخت.. ركضت ناحيتها واحتضنتها منهارًا:

- شهد.. شهد.

أمسكني العجوز من كتفي وحملني على الوقوف عنوة.. نظر في عينيّ الباكيتين قبل أن يضع جهازًا حديديًا صغيرًا في جيبي هامسًا:

- أنج بنفسك الحقيقيّة ولا تلتفت.

دفعني من نافذة الغرفة.. لم يدرك عقلي كل ما رأيت.. سقطت أصارع الهواء ولهيب الإنفجار الكبير يلاحقني.. انفجرت القنبلة وتحول البيت بكل من فيه لقطعة من الجحيم المستعر.. لقد انتحر العجوز بعد أن قتل شهد.. لماذا قتلها؟ ارتطمتُ بالأرض الرمليّة أسفل بنايتنا وغبت عن الوعي.. ساد الظلام المطلق.. سكون جبريّ تمنيتُ ألا ينتهي.

سمعت صوت الموسيقى السيمفونيّة من جديد.. أعرفها.. موسيقى تصويرية للعبة بطن الحوت.. فتحت عينيّ بالكاد مستلقيًا أرضًا على بلاط كالثلج.. ارتعشت.. غرفة كبيرة للوهلة الأولى أدركتُ أنني داخل مشفى خاص بالأخص غرفة عمليات مجهزة بأحدث التقنيات.. العجيب أن فرقة موسيقيّة كاملة مرتدين بذل سوداء تعزف تلك المقطوعة السرمديّة في أحد الجوانب.. زحام شديد لأُناس كالغرانيق.. يذكرونني بغيبوبتي السابقة.. هل عاودتها من جديد؟ فقدت التمييز تمامًا.. يرتدون جميعهم قفازات بيضاء في أياديهم.. رجالًا ونساءًا.. قمصانهم تشبه تلك الّتي يرتديها الأطباء في غرف العمليات الجراحية.. صوت صراخ أنثوي يتعالى.. بحثت حولي عن مصدره.. في أحد الأركان سرير طبي يتجمع حوله البعض ثابتين.. فتاة فوق السرير تتألم وتصرخ.. الوحيدة بينهم الّتي تتحرك كالبشر.. اقتربت.. برقت عيناي من جديد.. إنها شهد.. اللعنة! ما الّذي يحدث ؟ أأعايش وهمًا يتكرر؟ لقد رأيت شهد مذبوحة بسكين العجوز مرجان بأم عينيّ.. فمن تلك الّتي تصرخ الآن فاتحة فخذيها؟ طفل

رضيع يولد للتو خارجًا من رحمها ويتعالى بكائه وصرخاته الدنيوية الأولى .. تراودني مشاعر مختلطة.. سالت دموعي فرحًا.. اقتربت ناحيتها أكثر.. في غمضة عين اقتحم الغرفة رجل ملثم ممسك برشاش آليّ.. أطلق الرصاص على الجميع فسقطوا في بحيرة من الدماء المختلطة.. حدث كل شيء أمامي ببطء كمشهد سينمائي مرعب.. اقترب الرجل الغامض الملثم من شهد وقتلها وقتل ابنها المجهول.. نظر في عينيّ ووقف لبرهة.. رأيت التعجب فيهما.. شعرت أنني أعرفه وهو يعرفني.. تعالت الموسيقى الملحميّة.. تلك الفرقة الموسيقيّة لم يصبها أي سوء.. ركض الرجل.. لحظات لم استوعب فيها ما حدث.. وجدت نفسي أركض خلفه.. أتعلق بخيط واهن ربما أفهم ما يجري.. خرج من المشفى وركب دراجة ناريّة وانطلق بها.. خطفت سيارة من سيارات الإسعاف عنوة من سائقها الواقف أمام المشفى لتبدأ مطاردة غير مفهومة.. لماذا أطارده؟ هل لأنتقم منه لقتله شهد؟ أي شهد؟

شهد المذبوحة قبلها في غرفتي؟ أم شهد المقتولة أثناء ولادة طفلها الرضيع؟ ربما شيء ما في داخلي يصدق أن ما يحدث الآن جزءًا من غيبوبة جديدة.. في نهاية المطاف سقطت دراجته في عرض الشارع وتدحرج أرضًا.. توقفت بسيارة الإسعاف وهبطت منها راكضًا نحوه.

التحم جسدينا.. ضربته وضربني.. تمرغنا فوق أسفلت سحل جلودنا حتى نجحت في إزالة اللثام عن وجهه.. توقفت.. برقت عيناي.. كأنني أنظر في مرآة.. هذا الملثم هو

أنا.. نسخة طبق الأصل مني.. يونس موسى الرحّال.

-٥-

أفاعٍ تصدر فحيحها المرعب و تستعد لمهاجمتنا.. تقترب زاحفة نحو هدفها المنشود بكل ثقة وأعينها البِيْض تعرف وجهتها كقذائف ناريّة محددة الهدف.. يرتبك ذلك الملثم الّذي هو نسخة طبق الأصل مني ويُخرج سكينًا حادًا من جيبه ويهم بطعني.. رصاصة خلفيّة تخترق قلبه بغتة.. سيارة تتوقف بالقرب منا يبدو أن سائقها هو مطلق هذه الرصاصة.. يسقط الملثم ميتًا.. إحدى الأفاعي تقترب على التهامي فاتحة فمها.. كدتُ أن استسلم.. أوشكت أن أكون طعامًا طازجًا لتلك الأفاعي الملعونة.. رجل داخل السيارة يهلل:

- يونس.. أركض إلى هنا سريعًا.

في لحظة واحدة كنتُ داخل تلك السيارة المنطلقة بأسرع ما يمكن مبتعدة عن تلك الأفاعي.. نظرت إلى الخلف أُراقبها لاهثًا.. نجوت مرة أخرى.. التقطت أنفاسي شاكرًا ذلك السائق في جواري فأجابني بسؤال زلزل عقلي:

- أتستحق أي فتاة على هذه الأرض كل هذا العناء يا يونس؟

التفتُ إليه مذهولًا.. ذلك السمين صاحب البطن الممتلئة الأصلع الرأس أعرفه جيدًا.. باغتني الخرس وتاهت مني الكلمات.. سألني مبتسمًا:

- ألا تعرفني؟

- أنت!!!!

- أنا خليلك (ملاك) يا يونس.

بات عقلي ككرة مشتعلة من اللهب تأكل بعضها بعضًا.. استطرد:

- لك كل الحق في ما تشعر به الآن.. كل ما يجري في هذا العالم يدفعنا عنوة نحو الجنون .. لكن لا تخف.. هون على نفسك.. سافسر لك كل شيء.

هل هناك تفسير منطقي لما يجري؟ تسائلت.. هل عُدت إلى الغيبوبة من جديد وقصتي المختلقة داخلها؟ لم اسمع من قبل عن رجل أفاق من غيبوبة وبعدها بعام يسقط في أخرى ليُكمل نفس الأحداث الّتي يهيئها له عقله الباطن داخلها.. كحلم متعدد الأجزاء يراه النائم كل ليلة بمجرد خلوده إلى النوم.. شيء عجيب.. ملاك! ذلك السمين هو صديق يونس البرمونيّ.. الصورة الأخرى ليّ.. تلك الّتي تخرج الآن من جب عميق وتتصارع من جديد مع يونس ابن الألفية الثالثة وتتغلب عليها لتملأ الحياة الوهميّة تلك من جديد.. كأنني الآن قد عدت صائدًا للذئاب في غمضة عين.. لكن هناك شيئًا مختلفًا هذه المرة.. أعلام ترفرف فوق البيوت حولنا في كل مكان خلال طريقنا عبر كل الشوارع الّتي مررنا بها.. أعلام سوداء يتوسطها رسم الأفعى البيضاء.. شعار لعبة بطن الحوت.. كأن اللعبة تحولت إلى حقيقة تغمر العالم من حولي.. صوت مذيع أسمعه فجأة يلتقطني من دوامات عقلي المشتعلة:

- أيها اللاشعوريين .. تذكروا دائمًا أن المشاعر مهلكة فلا

تدع الأفاعي تبلعك.

تعود الموسيقى الملحميّة الخفيّة من جديد أسمعها من دون توقف حتى بعد إيقاف ذلك المذياع وإغلاقه لم تتوقف.. لا أعرف مصدرها.. كل شيء حولي يدعو إلى الجنون.. فقدان العقل هو السبيل الوحيد للنجاة من أسئلة تفترسني ولا إجابة لها.

توقف (ملاك) بسيارته الحمراء عند أرض ممتلئة بالنخل.. أطلت النظر عبر النافذة.. بعد لحظات أدركتُ أننا في رشيد بلد المليون نخلة في نفس المكان الّذي صاحبتني فيه حبيبتي شهد لأول مرة.. أي شهد فيهم؟ تلك المختطفة في بحر الظلمات؟ أم المقتولة مرتين في الألفية الثالثة؟ وأي يونس أنا؟ صرخت:

- أنا لا أفهم أي شيء.

- اتبعني.. ستفهم.

تحرك بين النخيل.. تحركت وراءه.. اتجه ناحية شاطىء البحر .. بالقرب من المسجد المُهدّمة مئذنته.. توقف.. نظر إلى السماء الملبدّة بالغيوم والشمس المختبئة ورائها.. تنهد:

- اشتقت إلى حرارة الشمس كاشتياق الطفل إلى أحضان أمه.

- ما الّذي يحدث بحق الجحيم؟

نظر ناحيتي حائرًا من أين يبدأ.. تنهد مربتًا على كتفي.

اخرج هاتفه المحمول وأراني شاشته.. رأيت صورًا متعددة لي تقترب من المائة صورة مجمعة في صورة واحدة.. للوهلة الأولى تعتقد أنها لي ولكن عندما تدقق النظر ترى اختلافات عديدة بينهم.. أحدهم له شارب كث وأخر بذقن مهذبة وأخر بعين واحدة والأخرى مصفاة وغيرها من الاختلافات الشكليّة.. سألته متعجبًا:

- -ما هذا؟

- هؤلاء كلهم نسخ طبق الأصل منك.. مائة نسخة.. كلهم بلا استثناء قتلوا فتاة في حياتهم تُدعى شهد..أو بالأحرى مائة نسخة قتلت مائة فتاة كل النسخ يونس وكل الفتيات شهد.

- عقلي يكاد ينفجر من الألغاز.

- حسنًا.. اصغ لي جيدًا.. لنبدأ بأهم الأشياء.. أنت.. أنت الوعي الحقيقي ليونس الرحّال.. يونس البرمونيّ.. محبوسًا في نسخة الشاب المتوحِّد.

- الوعي!

- أنت الأصل يا يونس.. كل شيء بدأ حينما أُعجب شيطان العشق كيوبيدو بحبيبتك البرمونيّة شهد.. خطفها وذهبت أنت في صحبتي على سفينتي الشراعيّة إلى جزيرة غامضة في بحر الظلمات بدعوة مباشرة منه لتبدأ المباراة بينكما.. هذه الجزيرة تُدعى أرض الشيطان.. الإسم الحقيقي لبطن الحوت.. أنت الوعي الأصلي يا يونس.. في حقيقة الأمر جسدك الأصلي الآن مازال في مكانه داخل ظلام بطن

الحوت.. لقد قاموا بسلب وعيّك وإدخاله في هذا العالم..

- لكن!

- لا تقاطعني.. استمع ليّ وستفهم كل شيء.

- حسنًا.

- كل ما أراده كيوبيدو هو جرك لأرض الشيطان.. هذه الجزيرة تقبع خارج حدود الزمان.. لا أيام.. لا شهور.. لا سنين.. الدنيا كلها تدور خارج حدودها لكن في داخلها محكمة بقواعد إبليس.. الشيطان الكبير.. البداية كانت عندما سكن كيوبيدو وذويه العالم قبل خلق الإنسان بآلاف السنين.. نفر من الجن.. جاب مشارق الأرض ومغاربها وأحب المئات من نساء قومه الجنيات لكن لم يسكن قلبه غير واحدة فقط توجها ملكة بين الوصيفات.. لم يأبه بتلك الحروب الدائرة بين قومه في كل مكان ولم يشارك بها.. كذلك لم يهتم بتلك الحرب الكبرى للجن مع جنود مُرسلة من السماء.. قال العوام أنهم راغبين في إفناء الجن عن بكرة أبيهم.. ظل متنعمًا في أحضان ملكته ومعشوقته ثملًا ينهل من خمر قربها حتى باغتته مأساة لم ينسها أبدًا.. قُتلت حبيبته في الحرب الكبرى بل وانتهى عهد الجن ومات الملايين من قومه.. وقف منهارًا فوق كون محترق.. بات كالمجذوب لا يعرف ماذا يفعل.. كناجي وحيد من الجحيم عاش وحيدًا على هذه الجزيرة المنعزلة في بحر الظلمات يبكي على أطلال الذكريات.. مرت الأزمان حتى خُلق الإنسان وهبط آدم وحواء والشيطان إبليس إلى الأرض.. ودارت الحرب بين بني البشر والشيطان..

بقى كيوبيدو منعزلًا في جزيرته يتابع الأحداث.. حتى هُزم الشيطان وذويه في معركة حاسمة مع مهلائيل وجنوده أحد أبناء آدم.. فر الشيطان.. بحث عن مكان يأويه ويضمد فيه جراحه.. تلقاه كيوبيدو.. أحد زبانية الجن القدماء.. استقبله في جزيرته البعيدة عن الأنظار ولأول مرة منذ آلاف الأعوام وجد كيوبيدو أنيسًا له.. بات خليلًا للشيطان.. قدم لإبليس كل ولاء ممكن وساعده في بناء مملكته الجديدة.. جمع كل الشياطين والجن القدماء الناجين من الحرب وسجدوا حول عرش الشيطان.. كيوبيدو أقرب الجن للشيطان.. لم ينس إبليس له أبدًا ما فعله لتشتد مملكته بعد طول هزيمة.. راقب كيوبيدو الإنسان.. ذلك الكائن المتكاثر من عشق نشأ بين اثنين.. آدم وحواء.. ثم توالى العشاق حتى قامت إمبراطورية الإنسان واشتدت.. أقوى من إمبراطورية الجن المهزومة.. العشق.. ذلك هو السر في بقاء هذا الكائن صلبًا حتى الآن.. العشق.. ما افتقده كيوبيدو.. امتلأ صدره بالحقد على الإنسان.. أخذ على عاتقه تفريق الأحباب في كل زمان ومكان.. اجتمعت رغباته مع أهداف إبليس فقدم له كل مساعدة.. أسكنه المرايا.. وأخضع له الآلاف من الجن يأتمرون بأمره.. كل شيء يصب في مصلحة إبليس.. نجح كيوبيدو في تفريق بعض الأحباب.. منذ القدم سُجلت جرائم قتل بين الأزواج مجهولة السبب.. في الأغلب تفعلها النساء فهن الأكثر جلوسًا أمام المرآة بدعوى التزين.. تُلغى عقولهن ويسيطر عليها كيوبيدو ويجعل صورهن طبق الأصل بعيون بيض مرعبة تأمرهن بقتل أزواجهن.. بات الحاجز الوحيد لانتشار

ذلك هو إيمان الناس بالرب.. كأن شيئًا خفيًا يثبط فعل كيوبيدو يكمن في القلوب.. يمنع سيطرة الجن على العقول.. ولذلك كانت النتائج مبهرة في أقوام لا يعرفون الرب ولا يعترفون بوجوده.. فسقطوا في غيّ قاتل.. وتوالت الأزمان.. كلما زاد الإيمان كلما فشل كيوبيدو رغمًا عنه.. حتى جاء سليمان النبيّ وحبسه وجيوشه من الجن.. ساد العشق على المؤمن وغير المؤمن فترة من الزمان حتى جاء ذلك الساحر الساكن في بيت قريب من بيتك يا يونس وحرر كيوبيدو.. خرج كالمعتوه بعد طول سجن مشتعلة نيران الانتقام في صدره أكثر وأكثر .. بدأ بمدينتكم وحرض الأزواج على قتل بعضهم البعض.. ساعده أن الناس يعتنقون إيمانًا ظاهريًا لا ينفذ إلى القلوب أو بالأحرى الأغلبية.. فكانت مهمته ميسورة كانتشار النار في الهشيم.. ثم جاءت الطامة الكبرى الّتي زلزلت كيانه.. رأى كيوبيدو شهد.. رآها عبر مرآة بيتها.. لم يستوقفه جمالها ولا جسدها البض ولا أي شيء من هذا.. بل استوقفه ذلك الشبه بينها وبين حبيبته القديمة من الجن.. كأنهما صورتان لا يفرق بينهما غير رائحة الجسدين فتلك خُلقت من طين وحبيبته خُلقت من نار.. توقفت نار الانتقام في قلب كيوبيدو بغتة واختطف شهد.. حاول بكل الطرق خلال عام من اختطافها أن يستميل قلبها ولكن لا فائدة قلبها يملكه شاب من الإنس.. يونس موسى الرحّال.. أنت.. لذلك أرسل إليك لتخطو نحو شراكه ليثبت لها أنك لا تستحق ذلك الحب.. ووقعت أنت في خطته الذكيّة.. سافرنا إلى أرض الشيطان.. تلك الّتي يستطيع إبليس إخفاءها عن العيون

وقتما شاء فهي واقعة خارج الزمان.. لكنه أظهرها لنا إكرامًا لخليله كيوبيدو.. ثم ابتلعنا الحوت.. حوت الظلام.. الوسيلة الوحيدة وقتها للولوج إلى عالم بطن الحوت في زماننا.. عالم الشيطان المُجهز للإنسان .. عالم بلا مشاعر.. ما نحن فيه الآن..

طبقًا لخطة الشيطان هذا هو العالم المثالي له ولذريته حيث يخطط منذ القدم لتطبيقه على البشر بكل الوسائل.

- هل هذه قصة من قصص ألف ليلة وليلة؟

- يونس! هل رأيت الشيطان من قبل؟ هل سألت نفسك كيف يعيش منذ آلاف السنين ويستمر حتى قيام الساعة من دون موت؟ هل وجدت تفسيرًا عقلانيًا أخرًا لما تعيشه الآن؟

شردت قليلًا أُراجع كل ما قال هامسًا:

- كيوبيدو المساعد الأول لإبليس.. الناجي من زمن الجن.. وجد في شهد صورة لحبيبته المقتولة في عهد زائل قبل خلق الإنسان.. وفعل كل ذلك ليثبت لها أنني لا أستحق حبها.

- في بطن الحوت تقنيات حديثة استطاع بها استنساخ وعيك لمئات الشخصيات.. كلهم يشبهونك شكلًا ولكن قصصهم تختلف عنك وشخصيتهم أيضًا.. منهم ذلك الشاب الضعيف يونس وذلك القاتل لشهد لحظة ولادة طفلها في قصة أخرى.. وغيرهم كثيرين. الجميع مشترك في حب الأب وكره الأم والمعاناة وطوق نجاة وحيد للحياة الّتي هي شهد في كل القصص.. ثم غدر وخيانة وقتل.. لتتابع شهد مئات

المرات بوعيها الأصلي أنك خائن قاتل لا تستحق حبها.. كما قلت لك الجسد الأصلي لكما في مكانه مشدوهين مسحورين في ظلام بطن الحوت ولكن وعيّكما يعيش قصصًا مختلفة مصيرها واحد.. قتل شهد.. أنت تقتلها وهي تُقتل على يدك..

مهما كانت أسماؤها.. شهد.. سوزان.. عيون.

- عيون!

- نعم.. عيون نسخة مراهقة من شهد.

- لكنني لم اقتلها.

- قتلتها بضعفك.. ذلك سببًا كافيًا لتكرهك هذه النسخة قبل موتها بالسرطان.. الهدف هو أن تمقت كل نسخة من شهد كل نسخ يونس بمختلف الطرق..

مرة أخرى أوضح لك أن وعيك الأصلي حُبس في شخصية الشاب المتوحّد أما شهد فلا نعرف مكانها.. أي كان في كل قصة يُطبع على وعيك الأصلي نتيجة ما تفعله النسخ الأخرى منك.. تشكل جزءًا خفيًّا في عقلك الباطن.. وكذلك هي.. من دون أن تدرى تكون النتيجة النهائية اقتناع شهد باجرامك وكرهها لك.. ستمقتك كألد أعدائها.. في نظام بطن الحوت لا تعرف النسخ عن بعضها البعض أبدًا.. جميعهم ينفذون المهام المطلوبة منهم من دون مشاعر.. جميعهم يدخلون لعبة بطن الحوت كما دخلها شاب الألفية الثالثة.. جميعهم يستخدمون الإنترنت كما فعلت تلك النسخة الضعيفة منك.. بل والأكثر من ذلك.. البعض يرتدي بإرادته نظارة كبيرة على

وجهه ليجعل إبليس يتحكم فيه ويستخدم وعيه ويدخله عوالم مختلفة وهو جالس في مكانه.. تقنية تدعى ميتافيرس ومرتاديها لا يقوون على الخروج أبدًا من هذه العوالم.. يحبسون فيها.. حتى تلك النظارات لا يقوى أحدهم على نزعها عن وجهه.. الإنترنت ثم الميتافيرس هي الطرق المثالية للإنتقام من الإنسان في بطن الحوت.. عالم الشيطان.. خطة مستقبلية لتدمير البشر وافق الشيطان على دخولنا إليها قبل الأوان إكرامًا لكيوبيدو.. لذلك كان لزامًا جرجرتنا نحو أرض الشيطان ليبتلعنا حوت الظلام الوسيلة الوحيدة المتاحة في عصر لا يعرف الإنترنت.. لنخرج عن قوانين زمننا ونلج بطن الحوت.. لهذا أنا وأنت وشهد فقط المجبرين على هذا المكان .. مختطفين أما الباقين فقد دخلوه بإرادتهم في أزمنة لاحقة انتشر فيها التطور والتكنولوجيا.

- ماذا عن أبي وأمي؟

- نسخ يا يونس.. مجرد نسخ مزيفة لتكتمل الخدعة وتنطلي عليك.. نسخ من دون وعي أصلي لأن أصحابهم ماتوا في العالم الحقيقي.

ساد الصمت بيننا.. كنتُ كالغارق في بحر من الألغاز اللعينة.. نظر ملاك في عينيّ الزائغتين متنهدًا:

- نحن الآن لا نواجه فقط كيوبيدو.. لا.. نحن نواجه الشيطان إبليس نفسه.

- كيف عرفت كل ذلك؟

تنهد ملاك.. استطرد:

- مرجان.. جارك العجوز.. ذلك الرجل هو أنت.

- ماذا؟

- نسخة منك.. لم تكن جميع النسخ في نفس العمر.. كلا.. هناك من تزوج شهد وأنجب منها وقتلها هي وأولادها ذبحًا.. نسخ متعددة الأعمار ثُبت أن الغدر والخيانة طبع أصيل فيك لن يتغير مهما كانت الأسباب.. حتى وإن كانت بينكما عشرة وأولاد.. مرجان الّذي هو نسختك أنت يا يونس عاش عمره ينفذ المهمات لكنه نسخة كانت أكثر ذكاءً من الجميع.. عمل كصانع ومبرمج ألعاب على شبكة الإنترنت وكثيرًا نجح في قرصنة المواقع الحكوميّة ومواقع البنوك.. تلك النسخة استطاعت أن تصنع جهازًا إلكترونيًا يشوش على نظام بطن الحوت في حيز ضئيل يتواجد فيه فلا يعرفون ما يفعل.. والأعجب أنه من الصعب إكتشاف وجود ذلك الجهاز.. اخترع ذلك الجهاز في البداية ليعطي نفسه فرصة ليشعر.. ليحب.. ليغضب.. ليفرح.. ليكره بعيدًا عن قواعد اللعبة., خاصة أنه امتنع عن تناول الدواء الشهري المثبط للمشاعر.

حينها وضعت يديّ في جيبي متذكرًا ذلك الجهاز الحديديّ الّذي وضعه مرجان فيه قبل أن يدفعني من نافذة غرفتي ساعة الانفجار.. جهاز مستطيل الشكل له شاشة تحمل أرقام سبعة (٧٤٩١٢٢٥).. سألته:

- ما هذه الأرقام؟

- شفرة سريّة لا يعمل الجهاز من غيرها.

استطرد:

- مرجان أو بالأحرى نسختك العجوز العبقري اخترق نظام بطن الحوت بدافع الفضول الإنساني.. صُدم بالحقيقة.. بعد أن قام بقرصنة كل هذه المعلومات الّتي حكيتها لك عن كيوبيدو وتاريخه.. كل شيء مسجل في ملفات سرية في هذا النظام .. اكتشف مرجان قصة النسخ المتعددة وقضى وقتًا طويلًا يحاول الوصول إلى الوعي الأصلي الحقيقيّ من نسخته.. الوصول إليك.. وعندما وجدك فعل شيئًا في اللعبة في الملف الخاص بك يجعلك ترى حياة بعض النسخ وتعيش فيها من دون أن تفقد الذاكرة.. تداخلت حيوات النسخ.. صنع جسورًا الكترونية بينهم.. رأوا بعضهم البعض.. بعدها أخذه الغرور فعمم تجربته على كل من في ذلك العالم.

في البداية كان الوعي الأصلي يصحو في حياته الجديدة ناسيًا كل شيء مضى ويعيش كأنه ذلك الشخص الجديد محبوسًا إلى حين غير معلوم أما ما فعله مرجان هو ما جرى لك بالتفصيل.. صنع تلك الجسور بين النسخ متحديًا اللعبة بأكملها.. تملكه الانتقام والغضب بعد اكتشافه أنه مجرد دُمية في أيدي كيوبيدو وإبليس.. تحداهم حتى وإن كان بنجاة أصحاب الوعي الأصلي من ذلك الشرك الموشك على إفناءهم.. ليس هناك شيء أشد ألمًا من العيش بلا مشاعر .. أن تقتل كل من يحبونك بقلب بارد.. أن تمضي في حياة باردة كالثلج دُمية في أيدي الشياطين.. أن تكون مجرد رقم في

إنتاج مصنع الدُّمى.. مصنع الدُّمى البشرية.

- مصنع الدّمى البشرية.

سالت دموعي مردّدًا.. استطرد:

- نجح مرجان في الوصول إليك أنت الوعي الأصلي ليونس البرمونيّ.. لكنه لم يتمكن من إيجاد الوعي الأصلي لشهد.. شُفرت معلوماتها في اللعبة.. حاول اختراقها ولكنه لم يستطع.. ثم وجدني بعدها وتقابلنا وحكي لي كل ذلك.. أنني أيضًا الوعي الاصلي من ملاك.. رأيت بأم عينيّ النسخ المتعددة مني.. سألته وقتها ما الهدف من كل هذه النسخ؟ أتفهم أن كيوبيدو يستنسخ منك أنت يا يونس ليثبت لشهد خيانتك وإجرامك لكن لماذا أنا؟ ولماذا كل هؤلاء البشر المستنسخين.. أجابني بجملة واحدة:

«لن تقوم الساعة إلا على شرار البشر حيث تكون التوبة نسيًا منسيًا»

السيطرة على وعي الإنسان يُدخله عالم الشيطان.. يتطبع بنتائجه وينسى الرب والتوبة وكل ما هو ربانّي.. عالم من النسخ المتكررة بلا مشاعر.. عالم تسوده الأفاعي..

بعدها أدرك مرجان أن كيوبيدو ومساعديه عرفوا باختراقاته ويجرون تحديثات لنظام بطن الحوت تلغي كل ما فعله.. ستعود النسخ خاضعة لا تتذكر أي شيء و تفقد الذاكرة ولو تطلب الأمر ستموت كل هذه النسخ وينتجون نسخًا أخرى مطابقة للمواصفات.

لهذا السبب انتحر مرجان وفجر نفسه بعد أن وضع في جيبك ذلك الجهاز المشوش لنظامهم المحتوي في نفس الوقت على جهاز تتبع أملًا منه أن أعثر عليك داخل تلك المنظومة الفاسدة.. لأخبرك بوصيته.

- أي وصية؟

- أنت الوحيد القادر على إنهاء نظام بطن الحوت.. عليك أن تنج بوعيك الأصلي.. ابحث عن الوعي الأصلي لشهد وانج بها يا يونس.. اخرج من بطن الحوت واخبر العالم بكل شيء..

اخبرهم بخطط الشيطان ومدينته المستقبلية.. حذرهم من بطن الحوت.. تلك وصيته.

اقترب ملاك مني.. ربت على كتفي ناظرًا في عينيّ:

- بقى شيء واحد وأرجو أن تتفهم يا يونس.

- أي شيء؟

- في عالم بطن الحوت لا مكان للصداقة.. لا مكان للوفاء.

نظرتُ إليه غير فاهم.. استطرد:

- نظام بطن الحوت نظامًا ذكيًا متطورًا للغاية.. اكتشافه للإختراق والجسور الإلكترونية يجعل معرفته بالجهاز وشفرته السريّة أمر حتميّ عاجلًا أم أجلًا.. لذلك لم يكن أمامي اختيار.

اغرورقت عيناه بالدموع.. في لحظتها ظهر عدد كبير من جنود في زيّ أسود مطبوع على صدورهم شعار بطن الحوت..

أفعى بيضاء ضخمة.. ظهروا شاهرين أسلحتهم تجاهي.. صاح كبيرهم:

- لا تتحرك يا يونس.. أنت مطلوب بتهمة الخروج عن النظام العام.

-٦-

برودة العالم تجتاحني.. ترتطم بقلبي كأمواج غادرة تجرفه نحو مدن الثلج مبتعدًا عن كل دفىء محتمل.. تحوّل كل شيء حولي إلى اللونين الأبيض والأسود.. اختفت بقية الألوان إلى غير رجعة.. تحول الكون إلى صورة باهتة .. إلى نظام بطن الحوت.. يبدو أن الوضع صار قانونيًا مُعلنًا.. اختطفوا مني الجهاز الحديديّ ذي الأرقام السبعة ودمروه.. اقتادوني إلى حافلة ضخمة تحت تهديد السلاح ورموني داخلها مكبلًا بسلاسل غليظة حول قدميّ ويديّ ورقبتي.. أعلام الأفاعي ترفرف فوق كل البنايات.. رأيتها عبر نافذة صندوق الحافلة الخلفي المنطلقة بي نحو المجهول المرعب.. في لحظة تدمير جهاز مرجان نسيت كل شيء حدث بعد رؤيتي لشهد في بيت الرذيلة.. مُسحت الأحداث الّتي تلتها من تفجير البيت وذبح شهد ورؤيتها مجددًا تلد طفلًا رضيعًا وتلك النسخة طبق الأصل مني القاتلة لها في غرفة العمليات ومقابلة (ملاك) وحديثه بالكامل كأن كل ذلك لم يكن.. بل وأُلغيت كل الجسور الإلكترونية بيني وبين النسخ المتعددة مني.. هُدم كل شيء فعله مرجان.. قاموا بإعادة ضبط للمصنع.. مصنع الدُّمى البشرية.. تحديث أعاد كل شيء إلى مكانه.. باتت حياتي الوحيدة الّتي أتذكرها هي لذلك الشاب الضعيف المتوحّد يونس الرحّال المنتحر والده والكاره لأمه والفاقد لحبيبته شهد.. تلك الّتي عثرتُ عليها أخيرًا تبيع جسدها لمن يدفع.. أخر ما أتذكره هو رجوعي إلى

شقتي منهارًا أفكر في طريقة ما لإلغاء اللعبة عن حاسوبي الإلكتروني.. في محاولة يائسة لإرجاع كل الأموال الّتي كسبتها والنجاة بشهد.. بعدها فقدتُ الوعي حتى أفقت هنا في هذه الحافلة مكبلًا بين حشود من الناس المكبلين مثلي يكتظ بنا صندوق هذه الشاحنة كأسرى حرب يستعدون للحرق احياء على أيدي الأعداء.. جميعنا نبكي من دون توقف.. رجالًا ونساءًا.. ستبتلعنا الأفاعي لا مفر.. الآن وقد سيطر اللاشعوريين على العالم.. الآن وقد بات الموت حتميًا لا نجاة منه.. موت بلا شهد.. لو أنهم يسمحون لي بلحظات معدودة لأرتمي بين أحضانها قبل الموت.. لفار تنور عشقي نحو أنهار جنتها إلى الأبد.. لمُنحتُ عمرًا ممتدًا حتى فناء البشر.. شهد! غاية كل الأحلام.. أحلام مستحيلة.

سالت دموعي.. تركتها تنهمر غير مكترث فلم يعد هناك سببًا لكتمان مشاعر فشل صاحبها في تجميد إنسانيته.. الان احزن.. استسلم لحريق شب منذ مولدي بين قطبين متنافرين .. الآن يلتهمني جحيمهما.. عالم بطن الحوت بالنسبة لي هو النهاية الحتمية لشاب عاش عمرًا يبحث عن جنة مشاعر دافئة بين وديان الجحيم المستعر حتى غلبه التيه بلا رجعة.. ذات مرة أخبرني والدي أن جنة الله يهيم فيها العشاق من دون قيد أو شرط.. من دون ألم أو حسرة .. هناك تُحبس الأحزان خلف أبواب الجنة.. تُجرجر ككبش ذميم إلى جهنم.. تُلقى في نفوس الأشقياء.. الآن أتذكر حديثه.

تُرى هل يغفر الله لي كل ما فعلت ويُدخلني جنته الحقيقيّة،

بعد كل تلك الدماء الّتي أسلتها؟ أتمنح التوبة لقاتل محترف؟

التوبة! من كلمات أبي النادرة.. كأنه زمان بعيد مضى ودُفنت أسراره.. شخص مثلي لم يصل يومًا في حياته.. لم يذكر الله.. عاش في عالم بغيض يملؤه الكذب والقتل والضلال حتى صار قاتلًا محترفًا.. جمد مشاعره كالملايين غيره.. أيمكنه التوبة؟ كيف؟ أعتقد أنني في طريقي إلى جهنم بنجاح مبهر.. جحيم مستعر بأحزان ستلازمني من دون نهاية.. انهرتُ باكيًا.. ياليتني أُولد من جديد.. أسلك طريقًا غير الطريق.. أملك قلبًا غير قلب معتم غليظ.. ياليتني أنجو.

رجل يزحف تجاهي بين حشود البكائين.. رأيته عن قرب يرمقني.. عرفته.. السيد طارق زيدان والد عيون وقد انتشر الشيب في رأسه.. همست:

- أستاذ طارق زيدان!

- يونس.. لم أتخيل أبدًا أن أراك هنا.

- تلك قصة طويلة.

- قصة الضعيف الواهن.

- ماذا؟

بهتُ.. ابتسم ساخرًا.. نظر في عينيّ:

- لقد أحبتك عيون يا يونس.. عشقتك من دون فائدة.

- عيون!

- ما يفيد معذبة مثلها حب محكوم عليه بالفراق؟ قاومت عيون حبها و كبحت زمام قلبها المهترىء واقنعتك أنها لا تحبك.. كل هذا العشق يا يونس أنت قابلته بجحود.

- أي جحود ! .. لقد صرحت لها بحبي الّذي رفضته.

- لم تقتلها.. تركتها تتعذب أيها الضعيف.

لم تسعفني الكلمات فأصابني الخرس.. همس مسترجعًا أحداثًا تؤلم قلبه باكيًا:

- حاولت إنهاء عذابها بيدي لكنني لم استطع.. اقترحت عليّ أن تفعلها أنت.. راهنت على حبك لها.. طلبت والدك ليسمح لك بزيارتها.. افسحت لك المجال ولكنك رفضت يا يونس.. أنت أيها الضعيف الواهن تركتها تتعذب حتى لحظاتها الأخيرة.

- أتحاسبني لأنني لم اقتل ابنتك؟ هذا جنون مطلق.

- الموت أحيانًا يصبح الحل المثالي.. كحالتنا هذه.. في هذا العالم يُحسد الأموات على رحيلهم عن دنيا تملأها دُمى بشرية.. دنيا محظور فيها للإنسان أن يشعر.

توقفت الحافلة.. صوت ضجيج يُرعبني.. فُتح الباب.. جرجرنا الجنود أرضًا قاطعين حديثنا العبثيّ.. والد عيون يهلل:

- الموت أفضل يا يونس.. الموت أفضل.

سحلونا بقسوة متناهية.. رموني في قفص زجاجي سميك وأغلقوا الباب بقفل كبير.. زحفتُ نحو جدار القفص وجلست

القرفصاء أبكي متوجعًا.. نظرتُ حولي.. خارج القفص ساحة كبيرة من الرخام الأبيض يعلوها درجات رخاميّة سوداء.. تصميم يشبه المسارح الرومانيّة.. ساحة شاسعة بيضاوية يملأها أقفاص زجاجية منفصلة بممرات متساوية حولي.. أناس تملأ درجات المسرح يهللون بوجوه جامدة.. يضحكون كالدُّمى.. كأنهم تماثيل تتحرك أفواهها بشكل ديناميكي في زيّ أسود موحد يموجون بعضهم في بعض.. عدد كبير من المذنبين مثلي في تلك الأقفاص.. تيار كهربائي مباغت يسري في جسدي.. انتفضتُ صارخًا ممتزجة صرخاتي مع صرخات وأنين المذنبين حولي.. الأرض من تحتنا مصقولة بحديد يوصل التيار الكهربائي لنا ببراعة.. مع كل صرخة لنا تهلل تلك الجماهير .. لافتة كبرى مضيئة لاحظتها في واجهة ذلك المسرح الرومانيّ من الداخل.. مكتوب عليها : (حديقة الإنسان) .. وفي خط صغير .. يُسمح بالضحك والتهليل داخل حدود الحديقة.. تتعالى ضحكاتهم وأجسادنا يُلهبها التيار الكهربائي المتجدد.. نرتعش كقرود راقصة في عرض عبثيّ.. صوت طبول يبدو للوهلة الأولى أننا نتراقص على إيقاعها.. يهللون.. يضحكون.. تتزايد رعشاتنا مع إيقاع الطبول.. صوتٌ مرعبٌ يباغتني.. فحيح أفعى تقترب.. كأنها جاءت من العدم.. في هذه اللحظة ارتفع حاجز زجاجي ضخم كالقبة فوق أقفاصنا تفصلنا عن الجماهير.. فُتحت الجدران الزجاجية العلوية للأقفاص فصار المذنبين جاهزين للالتهام.. نصرخ بكل مالدينا من قوة.. تزحف نحونا أعداد مهولة من الأفاعي الضخمة.. يضحك الجماهير.. لم ألحظ حينها أن سقف القفص

الخاص بي لم يُفتح إلا عندما رأيت الأفاعي تلتف حول القفص الخاص بي محاولة الوصول لي.. نمتُ أرضًا مرتعشًا.. من الصعب على المرء مهما كان إجرامه مواجهة الموت.. القُرب من جحيم الآخرة تنخلع له القلوب وإن كانت تعيش عمرًا فاقدة كل شعور ممكن.. الموت وحش كاسر لا يقوى إنسي على مواجهته أبدًا.. راقبتُ ذلك السقف.. إنه مغلق.. ربما حدث عطل ما.. ترقبت مأساتي.. الأفاعي تحاول بكل ما لديها من جوع.. تعتصر القفص.. يبدو أنه مصنوع من زجاج لا ينكسر أبدًا.. الناس تهلل.. لاحظت عدد من المذنبين حولي لم تُفتح أسقف اقفاصهم مثل حالتي.. طارق زيدان والد عيون تبتلعه أفعى ضخمة وأخر ما نطق به صارخًا:

- الموت أفضل من هذا العالم يا يونس.

نظرتُ للسقف متوجسًا.. بدأ الأمل يتسلل إلى نفسي.. الباقين تحولوا لجثث تبتلعها الأفاعي.. تختفي داخل أفواهها في غمضة عين.. جلست القرفصاء مرتعشًا أراقب مشهدًا لا يمكن لإنسان أن يتحمله.. لم يخطر على بال أمهر كتاب الدستوبيا والروايات السوداوية.. رعب منقطع النظير .. صوت أجش يتحدث في مكبر صوت:

- جورج عبد الرب حماد.. نور الدين مختار.. فريد الدمرداش.. جويرية طارق.. نهى عابدين السيد.. يونس موسى الرحّال.. إعفاء من العقوبة.. لكن حذار في المرة القادمة.. اختراق قواعد بطن الحوت يُعتبر جريمة عظمى.. حذار من القدوم إلى هنا مرة أخرى.. حذار من المشاعر.

انتهى العرض الدمويّ.. توقفت أصوات الطبول وغادرت الأفاعي ممتلئة البطون.. تصلب جسدي تمامًا.. بتُ في عالم أخر لا أدري بمن حولي.. خارت قواي بعد الإستماع لذلك الصوت.. عُدتُ بعدها محمولًا إلى شقتي.. حينما أفقت وجدت أمي جالسة على كرسي في غرفتي ترمقني.. لم أتذكر أنني أثناء اختراق مرجان تركتها تنفجر من دون أن يهتز لي قلب.. أي قلب؟ لقد مات قلبي حقًا.. بعد كل ما رأيت لن أقوى على التفكير ولو للحظة في مخالفة بطن الحوت.. ذلك الضعف المتمكن مني سيسحق أي عشق يجرجرني نحو الهلاك.. أنا البائس المطرود من مدن العشاق وحروبها.. لست ذلك الفارس المغوار.. من يخطف عشقه على جواد من قوة واحتماء.. لست ذلك القديس.. الشيخ.. لست ذلك الرجل الربانيّ.. لست قادرًا على المواجهة.. أنا الخطاء.. أنا الملعون بلعنات الضعف والهوان.. أنا أحقر من أنجبت الدنيا.. أنا الإنسان العصري اللاشعوري.. وأدت ذكرياتي في قبر مظلم.. عيون وشهد.. أبي.. كل ما يُحيي ذلك القلب الواهن أغلقتُ عليه آلاف الابواب.. سقط قلبي في ظلام سرمديّ.

مرت الأيام.. غرقتُ في مهمات لا حصر لها وازدادت الأموال.. بات كل شيء علنيًا.. حتى صار الإعلام يتحدث عن أفضل لاعبي بطن الحوت في كل بلد.. أفضل المنفذين للمهمات.. القاتلين.. السارقين.. تجار الأعضاء والمخدرات.. أشهر الشواذ.. أشهر تجار العبيد.. أكثر المومسات جمالًا.. صاروا أيقونات يتبعهم الناس ويتمنون أن يكونوا مثلهم يومًا ما.. انتشر العهر كالنار في الهشيم.. أضحى الناس كالدُّمى لا

يتجملون.. يُجاهرون بأفعالهم فخورين.. أما المال فقد زاد عن الحد.. اغتنى الجميع حتى صار الذهب مُلقى في الشوارع لا يقربه أحد.. ظل العالم محصور في لونين.. الأبيض والأسود فقط.. مازالت الألوان الأخرى مختفية.. يبدو أنها لن تعود أبدًا.

صرت وأمي غريبين.. لا حب.. لا كره.. لا نشعر بأي شيء تجاه بعضنا البعض.

في ليلتي الأولى بعد مأساة حديقة الإنسان وقفت أمام مرآة غرفتي متعجبًا.. كانت المرة الأولى الّتي أرى فيها صورة طبق الأصل مني بعينين بيضاوين مرعبتين ترمقني داخل المرآة.. في البداية أصابني رعب ورجفة.. بالأخص حينما بدأ يُحدثني هامسًا:

- كيف حالك أيها الإنسان؟

- من أنت؟

- أنا أنت يا يونس.. أو بالأحرى قرينك من الجن.

- الجن!

- لا تُضيع وقتًا يا يونس.. أنا هنا من أجلك..سأقودك نحو جنة الإنسان.. سأساعدك في وأد المشاعر حتى لا تسقط في المحظور.. اعلم أن تلك المشاعر هي ما قادتك نحو ساحة الأفاعي من قبل.. عليك أن تعمل جاهدًا ألا تعود إلى هناك.

في ليلتها ظهر إعلامي شهير وتحدث عن ظاهرة المرآة.. طلب من الناس الانصياع لصورهم في المرايا.. تكرر الأمر

في كل القنوات التلفزيونية.. بكل لغات العالم.. ثم اعتدت على وجوده.. خاصة أنه لم يكن محصورًا في مرآة غرفتي بل لازمني في أي مكان أذهب إليه.. أستطيع أن أراه في أي مرآة.. في سيارتي.. في مرايا الملهى الليليّ الّذي أقضي فيه ليالي لم أعد أُحصيها.. حتى في المرايا العاكسة لواجهات المحلات والفنادق.. لطالما تعلقت بعينيه البيضاوين منتظرًا إيماءة.. إشارة بأنني ابلي بلاءً حسنًا.. لطالما يوقفني و ينذرني بصوت هامس لا يسمعه غيري:

- شعور بالكره.

- شعور بالحب .

- شعور بالغضب.

- احذر.

مهمته تدريبي على عدم الشعور حتى أنفذ مهماتي من دون خطأ يُذكر.. لم أكن الوحيد في هذا العالم من يأتمر بصورته في المرآة.. بل كل الناس من حولي يخضعون لصورهم.. للعلم يحدث ذلك بشكل منفرد.. كل بمفرده.. كل وقرينه.. لا يرى أحد صورة غيره أبدًا.. تدريب على أعلى مستوى.. فهمت أن اللعبة الّتي تحكم العالم الآن لم تكن تعاقب من يشعر لأنه يشعر ولكن تعاقب من تقوده مشاعره نحو العصيان.. فمن الأولى وأد تلك المشاعر من الأساس.. يساعدونا على ذلك بجرعات شهرية من دواء قتل المشاعر.. في بعض الأحيان يسمحون بمشاعر محددة.. كالضحك

وسعادة الشهوة الجنسية فقط.. لم يُسمح بغيرهما.. ويتعلق ذلك بأماكن محددة.. أما القنوات التليفزيونية فيُعرض عليها برامج (التوك شو) والأفلام الإباحية لا غير.. وإن رغبت في الاستماع إلى المذياع فلا شيء غير الموسيقى سريعة الإيقاع.. موسيقى الروك الغربية وبعض أغاني عربية تُسمى أغاني المهرجانات لا يُفهم كلماتها.

صاحبتُ فتيات بعدد شعر رأسي وضاجعتهن في غرفتي.. فتاة كل ليلة.. بيد أنه قد طُلب مني في إحدى المهمات مضاجعة إحداهن فوق فراش مذبوح عليه أخرى.. عدت تلك الليلة بفتاتين.. إحداهن تعلم أنها ستذبح.. قدمت نفسها بطاعة عمياء.. ذكرتني بهؤلاء البشر الذابحين لأنفسهم أيام الإنترنت المظلم كقرابين شيطانية.. زمن الموت الجميل.. قلتها ساخرًا.. تسائلت: هل يحكم الشيطان العالم الآن؟

هراء مجرد التفكير.. ما كان كان.. أيام تمر تشبه بعضها بعضًا تحت شمس لا تُرى خلف سحب لا تهجر السماء.. برد مستمر في اجتياح جثث القلوب المتزايدة.

أما قلبي فقد شُيعت جنازته يوم أُمرت من جديد بقتل شهد.. المومس الملقبة ب سوزان.. حينما رأيتها مجددًا توقفت للحظات شاهرًا سكيني.. ترددتُ.. ظهرت تلك الصورة المطابقة لي عبر مرآة غرفتها.. سمعته يحذرني:

- شعور بالعشق سيقودك نحو الهلاك.

تداعت كل الذكريات المتعلقة بحديقة الإنسان.. تلك

الأفاعي المفترسة.. ارتعشت.. هرعت نحوها.. نحرتها.. غلبت ذلك العشق إلى الأبد.. صرت دُمية حقيقية داخل مصنع محكم الصنع.. دُمية بلا مشاعر.

دق جرس الباب.. شعرت حينها ببعض من الصداع النصفي المباغت.. لم تكن أمي في البيت.. للعلم هي أيضًا لاعبة بارعة تنفذ المهمات وتجني الكثير من المال.. تحركت لأفتح الباب.. كلما اقتربت ازداد الصداع في رأسي.. كاد عقلي ينفجر.. صور متتالية مختلطة تتداعى على ذاكرتي غير مفهومة.. قلبي ينتفض.. شريط سينمائي متقطع يُعرض على عقلي.. انفجار غرفتي.. ولادة شهد لطفل رضيع.. شخص يشبهني يقتلها.. مطاردة بيني وبينه.. الألم يفتك بي.. فتحت الباب.. برقت عيناي متذكرًا كل شيء.. وقف أمامي مبتسمًا.. الرجل البرمونيّ السمين صاحب البطن الممتلئة (ملاك).

-٧-

- أحبك جدا وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل,

وأعرف أنك ست النساء,

ست النساء وليس لدي بديل,

وأعرف أن زمان الحنين انتهى,

آه ومات الكلام الجميل.

جاء صوت ذلك المطرب (كاظم الساهر) عبر إحدى إذاعات المذياع عبر قناة ممنوعة التقطها (ملاك).. استمعتُ إليها فأسرتني موسيقاها وصوته وكلمات أغنيته المسماة (الحب المستحيل).

عاد ملاك بعد التقاط تلك المحطة الإذاعية المحظورة مترنحًا وجلس في جواري القرفصاء مسندًا ظهره على جانب الفراش.. علامات الضرب المبرح على وجهه.. نظرتُ إليه مبتسمًا.. بينما قبع قريني - صورتي طبق الأصل ذات العينين البيضاوين- في المرآة مخدوعًا ثابتًا.. ينظر إلى الفراغ يراقب صامتًا.. همس ملاك:

- لا تقلق.. هو الآن يعتقد أنك نائم.

ضحكنا.. بعد أن فتحت الباب لملاك تذكرت كل ما حدث.. قصة كيوبيدو شيطان العشق ووعد إبليس له وأرض الشيطان وبطن الحوت والصراع المحتدم بيني وبينه على قلب شهد.. تذكرت خيانة ملاك وتسليمي إلى نظام بطن

الحوت وكل العذاب النفسي والجسدي الّذي لاقيته بعدها.. لكنه أوضح لي الكثير من الأشياء بعدما انهلتُ عليه ضربًا.. خلص نفسه مؤقتًا من بين صفعاتي وضربات يديّ مفسرًا:

- انتظر.. انتظر يا يونس.. سأشرح لك.

- أمازلت تريد خداعي أيها الخائن!

- لست خائنًا.. أنا خليلك الوحيد ألا تتذكر؟

- أتذكر خيانتك فقط أيها السمين.

- كان عليّ تسليمك لهم أنت والجهاز المخترق لنظامهم لنكسب بعض الوقت يا يونس.

- أي هراء هذا؟

- استمع لي جيدًا.. مرجان الّذي هو نسخة منك اكتشف نظام بطن الحوت أفعاله وحدد مكانه.. لذلك انتحر تاركًا وصيته لك معي.. وضع في جيبك جهازه المخترق لنظامهم بشفرة ظاهرة على شاشته .. طلب مني الإبلاغ عنك بعد شرح كل شيء لك.. ليغلقوا تمامًا قصة الاختراق والجسور الالكترونية بين النسخ المتعددة و يطمئنوا أن عالمهم المصنوع أمنًا.. المخترق مات منتحرًا في انفجار والجهاز تم تدميره وتم تسليمك لهم.. أما أنا فقد أثبت لهم ولائي المزيف.. أخبرتهم أن مرجان تواصل معي وطلب مني تهريبك من اللعبة.. سلمتك لهم في رشيد هناك على شاطىء البحر.. كل شيء فعلته كان مخططًا له من البداية يا يونس.

- لماذا يطلب منك مرجان تسليمي لهم وتدمير الوسيلة الوحيدة لكشف الحقيقة في نفس الوقت الّذي يترك فيها وصية لي تأمرني بالنجاة من بطن الحوت؟

- لأنها ليست الوسيلة الوحيدة يا يونس.

- ماذا؟

- اسمع.. في عالم بطن الحوت النسخ فقط هي من تموت.. لأنهم يصنعون غيرها بمنتهى البساطة.. نسخ لا نهائية.. أما أصحاب الوعي الأصلي مثلك فلا يموتون أبدًا.. مهما فعلوا.. مهما حاولوا الانتحار لا يموتون.. لقد توصل مرجان إلى هذه المعلومة بعد مراقبته لكل أصحاب الوعي الأصلي في اللعبة.. حتى من حاول الانتحار منهم فقد نجا.. وإن وصلوا بمشاعرهم نحو حديقة الإنسان.. يحصلون على العفو مثلك.. ولو ذهبوا لهناك مئات المرات يحالفهم نفس العفو.. ها أنت خير دليل على ذلك.. تلك قواعد اللعبة يا يونس.. هناك من يصر على إبقاءك على قيد الحياة.. أو بالأحرى إبقاء أصحاب الوعي الأصلي أحياء مهما حدث.

- كيوبيدو!

- أعتقد أن الشيطان أيضًا يريد ذلك.. يهمه بقاء البشر على قيد الحياة ليستمر هو وبنيه إلى الأبد.. تلك خطته في الأساس بعد تعديل استراتيجية المرايا في الماضي .. عثر مرجان على ملف قواعد بطن الحوت وقام باختراقها.. الشيطان في البداية وافق كيوبيدو على قتل الأزواج لبعضهم

البعض ولكن اكتشف أن فناء البشر معناه فنائه هو شخصيًا وبقاء الإنسان يضمن حتميًا بقاءه.. ذلك هو الدافع الرئيسي لصناعة نسخ لا نهاية تتكرر للأبد وإن ماتت كل يوم.

- لقد سئمت من تلك القواعد و الرغبات الشيطانية.. فليذهب الاثنان إلى الجحيم.

- ذلك لا يمنع أن كيوبيدو أيضًا يريدك على قيد الحياة ليفوز بمباراته معك.. اخشى أنه يقترب على الفوز بها بالفعل.

- لماذا؟

- أنت ونسخك خذلتوا نسخًا لا حصر لها من شهد.. سواء بالقتل المباشر أو بأي أسلوب آخر.. ذلك يطبع شعور بالمقت على وعيها الأصلي مع التكرار.. صحيح أن ما فعله مرجان كشف النسخ لبعضها البعض وفتح نافذة أمام وعي شهد الأصلي المجهول مكانه لرؤية الحقيقة ولكن الآن تم إعادة ضبط المصنع وستنسى كل شيء.. لن تتذكر غير كراهيتك.. ذاك ما أخشاه يا يونس.

- رأسي سينفجر مما تطرحه من ألغاز يا ملاك.

- اهدأ يا خليلي.. قلت لك ما زال لدي وسيلة للخروج من كل هذا.

- أخبرني بها سريعًا.

- هناك جهاز آخر أشد تعقيدًا من ذلك المحطم على أيدي نظام بطن الحوت.. لقد صنع مرجان اثنين.. أحدهما يُرمى لهم

لخداعهم والآخر ما زال معي.

- أين هو؟

أخرج حينها جهازًا من الذهب الخالص من جيبه يشبه سبيكة مربعة الشكل وفي منتصفها شاشة تسع سبع خانات فارغة.. رأيتها وتلمست شاشتها.. استطرد:

- ألم تسأل نفسك كيف تذكرت كل شيء بمجرد رؤيتي؟

نظرت إليه وقد فهمت ما يعينه.

- لأنك تحمل ذلك الجهاز.

- نعم.

- أين الشفرة الخاصة به؟

- الشفرة هذه المرة مخفية.. لم يخبرني بها مرجان.. لا أعرف السبب.. لكنه قال أن تلك الشفرة بالتحديد ستكون سبب نجاتك من بطن الحوت وعليك أن تبحث عنها بنفسك وحينما تعرفها تكتبها على شاشة الجهاز هكذا باللمس.

مرر يده على شاشة الجهاز الذهبي شارحًا لي.. سألته متعجبًا:

- لماذا لم يخبرك بها وينتهي كل شيء؟

- سألته نفس السؤال فأعاد جملته: على يونس أن يعثر عليها بنفسه لينج.

- اللعنة على مرجان.. اللعنة على كيوبيدو.. اللعنة على

إبليس.. لقد سئمت ما أعايشه من أحاجي

- الصبر يا يونس.. الصبر.. على الأقل أنت الآن تعرف نفسك وتحددها.. تدرك ما حولك جيدًا.. ترى الحقيقة بأكملها وأهدافك.

- أهداف!

- نعم.. وصية مرجان.. (أنت الوحيد القادر على إنهاء نظام بطن الحوت.. عليك أن تنج بوعيك الأصلي.. ابحث عن الوعي الأصلي لشهد وانج بها يا يونس.. اخرج من بطن الحوت واخبر العالم بكل شيء.. أخبرهم بخطط الشيطان ونظامه المستقبليّ.. حذرهم من بطن الحوت)

- وشهد! شهد الكارهة لي!

- يونس.. إن وجدت الوعي الأصلي لشهد واقتربت منها بذلك الجهاز ستتذكر كل شيء مثلك.. حينها ستُهدم خطط كيوبيدو وتفشل.

- كيف؟ كيف أجدها؟

- ربما هذا له علاقة بالشفرة الخفيّة لهذا الجهاز؟

- من يعرف؟ من يعرف؟

صرخت عاليًا في غضب.. ربت ملاك على كتفي.. ذهب ناحية الحاسوب الإلكتروني الخاص بي وفتحه على أحد المواقع المشفرة من العالم القديم.. التقط قناة للمذياع استمعنا فيها لهذه الأغنية البديعة بعدما أخبرني باسم مطربها

(كاظم الساهر) أحد المطربين المشهورين في زمان بعد زماننا بألف وثلثمائة وسبعين عام.. كررها حتى حفظناها وبتنا نرددها معه متجاهلين صورتي طبق الأصل ذات العينين البيضاوين في المرآة.. ذلك المغفل المأفون.. دندناها سويًا بصوت جهوري:

- أحبك جدًا وأعرف أني أعيش بمنفى,

وأنت بمنفى وبيني وبينكِ ريح وغيم وبرق ورعد وثلج ونار,

وأعرف أن الوصول لعينيك وهم وأعرف أن الوصول إليكِ، إليكِ انتحار,

ويسعدني أن أمزق نفسي لأجلك أيتها الغالية,

ولو خيروني، ولو خيروني لكررت حبك للمرة الثانية,

أحبك جدًا.. أحبك، أحبك, أحبك جدًا وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل.

اغرورقت عيناي بالدموع.. احتضنني ملاك مربتًا على كتفي هامسًا:

- سنجدها يا خليل العمر.. سنجدها وستخرجا من هنا.. أعدك بذلك.

-٨-

الآن ذهب يونس الرحّال المتوحّد الضعيف إلى الجحيم.. تمنيتُ أن يكون ذلك بلا رجعة.. ألا أفقد الذاكرة من جديد وتُغلق الجسور الإلكترونية ويُكتشف هذا الجهاز العجيب.. ستكون الناهية هذه المرة.. تنهدتُ محاولًا التركيز مع ملاك وخطته بعدما افترش خريطة أفكاره أمامي وعلقها على حائط غرفتي في جوار المرآة.. خريطة تشبه خرائط الشرطة الجنائية للبحث عن أعتى المجرمين.

أبحث عن روحي (شهد).. ربما ننجو سويًا من ذلك الجحيم.. علق ملاك صورتها في منتصف الخريطة وفي جوارها كتب (الهدف) وعلق صورة مرجان في يمينها وصورتي في اليسار.. وكتب ورقة وعلقها في يمين الخريطة.. قرأتها.. (الشفرة السريّة).. وتحته صورة جهاز مرجان الذهبيّ.. وورقة أخرى مكتوب عليها الشفرة السابقة الّتي تم تدميرها بنظام بطن الحوت (**7491225**).. تُرى؟ هل لهذه الأرقام معنى؟ فكرنا في كل الاحتمالات الواردة.. تاريخ ميلادي.. تاريخ لقائي بشهد البرمونيّة لأول مرة.. تاريخ وفاة أبي.. تاريخ ميلاده.. رقم هاتف.. رقم سيارة.. عنوان ما.. بحثنا في شبكة الإنترنت عن الرقم.. كل النتائج تُعلن فشلنا.. غرقنا في بحر من الألغاز.. حاول ملاك ترتيب أفكاره معي:

- سأعيد ترتيب ما أفكر فيه معك.. أنت الوعي الأصلي ليونس البرمونيّ المحبوس في نسخة يونس الشاب المتوحّد.. حبسك كيوبيدو داخله وغلّق أبواب ذاكرتك تمامًا

صانعًا من وعيك مئات النسخ.. جميع النسخ لا تعرف شيئًا عن الأصل الّذي هو يونس البرمونيّ.. جميع النسخ يعيشون في عوالم شبه متوازية لا يتقابلون أبدًا.. جميع النسخ يأتمرون بصورهم ذوات العيون البيضاء في المرايا.. جميعهم صاروا لاشعوريين بشكل أو بأخر.. لكن عندما حدث الاختراق الأول وصنع مرجان الجسور الإلكترونية بين النسخ وبينك اكتشف أن كيوبيدو نجح بالفعل في صنع نسخًا ذميمة لا تأبه بالمشاعر أبدًا.. لا تحب.. لا تعشق.. لا تشعر بالسعادة.. مجرد دُمى ينتابها الغضب والكره من حين إلى أخر.. كأنه انتزع منهم كل مشاعرهم ماعدا الغضب والكره فتركهما ليدربهما ظاهريًا على تركها.. وعندما علموا أنهم مجرد نسخ منك وأن كل العالم حولهم غير حقيقيّ من صنع الشيطان وكيوبيدو انفلت زمامهم.. زاد إجرامهم حد الفوضى.. تملك الغضب والكره من نفوسهم البلاستيكية.. أما الأصل الّذي هو أنت وكل أصحاب الوعي الأصلي كان العشق قبلتهم ومثواهم مهما حاول نظام بطن الحوت وأد ذلك الشعور داخل نسخهم.. ظلت قلوبهم تنبض بحب كامن رغم كم السواد المكتسب إياه في هذا العالم.. قلوب تحيا على أمل الغرام يومًا ما.. كلما ظن كيوبيدو نجاحه في السيطرة على العشق ومحوه من قلوب نسخ الوعي الأصلي يكتشف فشله الذريع.. العشق يا صديقي.. سر استمرار هذا الكون وصموده ضد الشيطان.. ذلك ما لم يتغلب عليه كيوبيدو حتى الآن.. لذلك حينما تبحث عن شهد.. إن كان في داخلها الوعي الأصلي ستتذكر حبها لك بمجرد اقترابك منها بجهاز الاختراق.. ستجد العشق

في عينيها مهما كانت الفوضى داخلها من نسخ متعددة.. أما إن كانت خاوية من الوعي الأصلي.. مجرد نسخ فارغة من المشاعر لن تجد غير الكره والغضب.. ربما تحاول قتلك.

- ما يدريك يا ملاك! ربما نجح كيوبيدو في جعلها تكرهني فعلًا بعد كل الجرائم الّتي ارتكبتها نسخي في حق نسخها.

- لا اعتقد ذلك يا يونس.

- لماذا؟

- لأنك ما زلت على قيد الحياة.. وجود وعيك الأصلي داخل نظام بطن الحوت يعني أن كيوبيدو ما زال يحاول.. ثق تمامًا أنه إن نجح في مراده وفاز بقلب شهد سيقتلك في العالم الحقيقيّ.. حينها سيختفي وعيك الأصلي للأبد وستبقى نسخك المحملة بالكراهية تتكرر بأمر الشيطان إلى أن تقوم الساعة.

- أشعر بأن تلك الألغاز تفترسني.. ما حيلة الواقف على حافة الهاوية باحثًا عن مجهول وسط عالم الأفاعي؟

- شيء آخر.. حذار من نسخة أمك.. حذار من نسخ أمك جميعها يا يونس.. ستبقى هنا أمامها وأمام صورتك في المرآة وأمام نظام بطن الحوت ذلك الشاب المتوحّد.. تُنفذ مهماته وتمارس حياته هو بكل ما فيها من ضعف وهوان وإياك والمشاعر.

- لماذا افعل ذلك ومعي ذلك الجهاز؟

- هم يعتقدون الآن أنك نائم.. إن اختفيت لفترة لن يقتنعون بنومك كل هذه المدة.. لا بد أن توائم بين الحياتين.. حياة يونس البرموني الباحث عن شهد للنجاة بها من بطن الحوت وحياة يونس المتوحِّد اللاشعوري.. كما أن جهاز مرجان الجديد بارع للغاية في الفصل بين الحياتين.

- حسنًا.. ولا داعي لتحذيري من أمي.. اقصد نسخ أمي.. ففي كل الأحوال أكرهها سواء في زماني أو هنا.. كما أننا لا نتقابل إلا صدفة.. منذ أن أُعلنت بطن الحوت نظامًا قانونيًا وهي في حالها لا تتدخل في شئوني.. أقصد في شئون يونس المتوحِّد.

- نسخ أمك هذه أكبر دليل على قدرة كيوبيدو في استنساخ وعي أصلي مات صاحبه لمئات المرات والتحكم فيه تمامًا كما يريد بشرط أن يكون صاحب الوعي الأصلي وقف أمام مرآة يسكنها هو أو ذويه قبل موته ولو مرة واحدة.

- انتظر يا ملاك.. هناك شيئًا لا أفهمه.. تقول أن الموتى يتحكم في وعيهم كيوبيدو ويجعل نسخهم ذميمة الخُلق أليس كذلك؟

- نعم.. بكل تأكيد.

- إذًا لماذا نسخة أبي في الألفية الثالثة كانت غير ذلك؟ رجل مرهف المشاعر عاشقًا محبًا للحياة يملك قلبًا لم يكن يومًا خاليًا من المشاعر.. برغم موته في زماننا.

- ذلك لغز أخر لا استطيع تفسيره.

- اللعنة على الألغاز.

- علينا بالبدء فورًا يا يونس في البحث عن الوعي الأصلي لشهد.. لقد فشلت في العثور عليه عبر الإنترنت كما فشل مرجان.. يبدو أنه من المستحيل الاختراق الكامل للمنظومة.. الوقت يداهمنا.. عليك أن تُبقي ذلك الجهاز قريبًا مني ومنك.. لندعو الرب ألا يلاحظ نظام بطن الحوت شيئًا.. ولتعلم.. قد يكتشفون ذلك الجهاز في أي وقت.. لا اضمن بقاء أمرنا سرًا.. حينها سنخلد هنا في جحيم كيوبيدو إلى الأبد.

مرت الأيام وسط الألغام والألغاز اللامنتهية نبحث فيها عن الوعي الأصلي لشهد تارة وأُنفذ فيها مهام بطن الحوت تارة أخرى.. نظم ملاك ذلك بحرفية شديدة.. في مواعيد محددة يرحل بالجهاز لأنسى كل شيء وأعود لحياة الشاب المتوحّد تراقبني صورتي في المرآة ذات العينين البيضاوين ثم يعود ملاك فأتذكر كل شيء وهكذا.. سألته ذات مرة:

- كيف قضيت أيامك السابقة مع هذا الجهاز يا ملاك؟

- تقصد اختفائي الدائم عن نظام بطن الحوت لفترة.. لا تقلق.. تظاهرت أنني سقطت في غيبوبة مرضية في مشفى أملكه.

نظرت إليه أحاول فهم ما يقول.. استطرد ضاحكًا:

- فساد إداري يا خليلي.. كل هذه الجرائم حولنا وتستغرب من فساد إداري! غرفة عناية مركزة يملكها صاحب المشفى المصاب بغيبوبة وهمية.. صورتي المرعبة في المرايا تراني

هناك في المشفى غائبًا عن الوعي.

- لماذا لم تفعل ذلك معي ؟

- أين ذكائك يا يونس؟ أنا مجرد نسخة مهملة كملايين النسخ تحت السيطرة أما أنت فدائمًا تخضع لمراقبة شديدة.. كل ما يتعلق بوعيك الأصلي بالأخص مراقبًا بشدة وأي شيء غير نمطي يحدث لك سيتم التحقق منه بكل دقة.

دارت عجلة الحظ بحثًا عن فرصة أراها مستحيلة.. صوت تلك الأغنية (مدرسة الحب) لا ينقطع عن التردد على مسامعي .. ادندنها في كل مكان أذهب إليه:

- علمني حبك كيف الحب يغير خارطة الأزمان..

علمني أني حين أحب، تكف الأرض عن الدوران..

علمني حبكِ أشياء ما كانت أبداً في الحسبان..

فقرأت أقاصيص الأطفال دخلت قصور ملوك الجان..

وحلمت بأن تتزوجني بنت السلطان..

تلك العيناها أصفى من ماء الخلجان..

تلك الشفتاها أشهى من زهر الرمان..

وحلمت بأني أخطفها مثل الفرسان..

وحلمت بأني أهديها أطواق اللؤلؤ والمرجان.

أخالني أتراقص مع حبيبتي شهد فوق كون تبتلعه الأفاعي.. أنظر في عينيها الساحرتين.. أقبل ما بينهما وقلبي يغرد

كعصافير الجنة.. نخطو فوق جثث العالم من دون تردد في موكب ليس فيه أحياء سوانا.. موكب العشق.. يالله.. كم أحبها ! شهد.. أصل كوني ومرسى كل أحلامي على شواطىء روحها الدافئة.

تلك الأحلام تمنحني سببًا للحياة في بطن الحوت.. أيام تمر وأنا كالمجذوب أبحث عن نقطة مياه في بحر الظلمات.. تمركزت النسخ جميعها في نطاق جغرافي يطل على بحر الروم.. الإسكندرية وبورسعيد ودمياط والعريش ومرسى مطروح.. عددهم تقريبًا خمسمائة نسخة جميعهم يظهرون كنقط حمراء على خريطة بطن الحوت للنسخ عبر الإنترنت.. لحسن الحظ أن هناك أربعمائة وسبعين نسخة من شهد قُتلت وأُعيد صناعتهم من جديد.. جميع النسخ المقتولة مسبقًا تم استبعادها.. بقي ثلاثين نسخة لم يتعرضوا للقتل من قبل.. يبدو أنهن محاولات جديدة من كيوبيدو.. محاولات بث الكره والسيطرة على قلب شهد لا تتوقف.

ثلاثين نسخة تمركزت كلها في بورسعيد والإسكندرية ودمياط.. حاولنا الحفاظ على التوازن بين يونس البرمونيّ ويونس المتوحّد.. كراقصي حبال شُدت فوق الجحيم.

بين الأبيض والأسود والألوان انقسم يومي.. بين الأفاعي والعشق تمزق قلبي.. بين المشاعر الدافئة والظلام حاولت الصمود.. بين شمس متقبلة المزاج وعاصفة ثلجية تنذر بهلاك أبديّ انتقلت.

بدأت المغامرات المتتالية أملين العثور على مبتغانا ضمن

الثلاثين نسخة.. ربما نجدها محبوسة في إحداها وتم إخفاء ذلك في نظام بطن الحوت.. علامة ذلك (العشق في عينيها).. وطأت أقدامنا كل مكان في حذر شديد.. ملاهي ليلية.. مسارح إباحية.. شوارع.. سيارات.. بنايات.. أسواق لحوم بشريّة.. حتى حدائق الإنسان المنتشرة في أحياء المدن لم نترك فيها شبرًا.. النتيجة واحدة.. كره منقطع النظير.. إجرام لا حدود له.. نسخ غاضبة من شهد فوضويّة تحاول قتلي بمجرد الاقتراب منها.. كان لملاك دور كبير خاصة في أماكن التجمعات حيث يعمل الجهاز على بناء الجسور الإلكترونية تلقائيًا بين النسخ المتواجدة في حيزه الضيق فتسود بعض الفوضى.. ينتظر اثبات الكره في عينيّ نسخة شهد حتى يركض مبتعدًا بالجهاز فينسى الجميع كل شيء كأنه لم يكن.. باءت محاولاتنا بالفشل.. لا وجود للوعي الأصلي لشهد.. جميع النسخ ذميمة المشاعر.. كل ما يتذكرونه أربعمائة وسبعين جريمة قتل من نسخ طبق الأصل مني لهن.. طبقا لنظرية ملاك فالوعي الأصلي لشهد غائبًا عنهم بكل تأكيد.

وقفنا حائرين.. هل أُعلن فشلنا بهذه السرعة؟ هل نستسلم ونسحق ذلك الجهاز العجيب بأيدينا و نغرق في بحور ذلك العالم المتعفن ؟ هل ندعو الرب أن يأتي يومًا تلتهمنا فيه الأفاعي لننتهي من ذلك العذاب؟ بتنا كرجال عُلقت أرواحهم بين السماء والأرض منذ الأزل.. لا هم عاشوا حياة يرضونها ولا سكنت أرواحهم.. هكذا مرت أيامنا معذبين يخفت الأمل داخل قلوبنا رويدًا رويدًا.

جلست في غرفتي استمع إلى أغنية (مدرسة الحب) للمرة الألف على ما اعتقد، في جواري ملاك منهمكًا في التهام رطل من الكباب المشوي.. نظرت إليه متعجبًا:

- أليس هناك نسخة منك يا ملاك قررت أن تضبط جسدها بنظام غذائي ورياضة ما؟

- كلا.. جميع النسخ مثلي تمامًا تحب الأكل بشراهة.

- ربما أسوأ منك.. على الأقل أنت تأكل لحم ضأن أما هم فمؤكد يأكلون لحوم بشريّة.

ضحكنا.. تعالت ضحكاتنا رغم الأسى واليأس المتزايد.. انتهى ملاك من عشاءه الرابع تقريبًا.. استلقى على الارض منتفخة بطنه الممتلئة عن آخرها مبتسمًا:

- احكِ لي قصتك مع شهد من بدايتها يا يونس.

- مرة أخرى؟

- نعم.. أحب سماع تفاصيلها.. أتعرف؟ لقد اشتقت حقًا للحب.. في عالمنا عزفت عنه بسبب خيانة قديمة.. أنت تعرف القصة بأكملها.. لكن بعد كل ما عايشت هنا.. في بطن الحوت.. ومعاصرتي لمعاناتك للنجاة بفتاة أحببتها تغيرت.. حتى كيوبيدو الشيطان يحارب من أجل الفوز بقلب فتاة يعشقها.. كل تلك الصراعات الدائرة بسبب العشق جعلتني اشتاق لقلب أرتمي في أحضانه لعلي أعوض ما فاتني.

- أعدك إن خرجنا من هنا أن أبحث لك عن فتاة تشبهك يا

صديقي.

- أعوذ بالرب منك.. تشبهني! كلا أريدها فتاة جميلة طازجة كالتفاح.. جسدها كساعة رملية ممتلئة.. عينيها تأسرني كبئرين لا قرار لهما.. اسقط فيهما إلى الأبد.

- تقول شعرًا أيضًا.. لقد تغيرت يا صاحب البطن الكبير.

ضحكنا.. ألح في طلبه بسماع قصتي وشهد.. استلقيت في جواره ناظرًا إلى فراغ بعيد.. صورتنا في المرآة يقفان في جوار بعضهما البعض مغيبين.. أحدهما يعتقد في نومي والأخر يعتقد أن ملاك ما زال في غيبوبة المشفى المملوك له.. غالبنا النوم وسقطنا في عالم الأحلام.

ضباب كثيف يحاوطني.. ضوء بعيد يقترب.. رأيت مرجان مبتسمًا يشير لي مناديًا:

- البيت يا يونس.. البيت.

تعجبت.. استيقظت على صوت رنين مهمة جديدة ليونس المتوحّد.. خبطت بطن ملاك الكروية فصحا من نومه.. طلبت منه الرحيل.. خرج ملاك مع الجهاز العجيب.. نسيت كل شيء.. رأيت الرسالة من جديد.. خرجت لتنفيذ المهمة.. لا يهم ما هي.. أنهيتها في نجاح باهر.. عدت للبيت.. فتحت الباب.. رأيت نسخة أمي تستعد للنوم.. تجاهلتها.. دخلت غرفتي.. وصل ملاك.. تذكرت.. صاحبته سريعًا إلى بيت مرجان المواجه لبنايتنا.. عثرنا على مفتاح الشقة في عداد النور.. دخلنا.. بحثنا في كل مكان عن المجهول.. لا بد أن

يكون لهذا الحلم معنى.. لم نترك مكانًا إلا وفتشناه من دون جدوى.. وقفنا في منتصف غرفة مرجان واليأس يتسلل إلينا وعبق الموتى والدماء المتجلطة يخنقنا في تلك الغرفة المقتول فيها المئات من الفتيات.. ربما لأننا ما زلنا نشعر.. ما زالت لدينا صفات البشر.. لسنا دُمى في مصنع للدُّمى البشرية.. لفت نظري حينها تلك الصورة داخل الإطار الفضيّ.. الصورة الّتي تجمعني مع أبي.. اقصد نسختي الشاب المتوحِّد مع نسخة أبي في الألفية الثالثة في أخر مرة احتضنه فيها في غيّة الحمام فوق بنايتنا.. تلك الّتي تعجبت من وجودها لضياع هاتفه المحمول بكل ما فيه قبل انتحاره.. اقتربت من الصورة.. اخرجتها من الاطار الفضيّ.. قلبتها.. جملة واحدة كُتبت بخط اليد.. قرأتها.. كضوء خافت يظهر في متاهة.. كأنني التقط للتو طرفًا لخيط يقودني لحل تلك الألغاز.. جملة من ثلاث كلمات:

- الطريق إلى الجنة.

-٩-

- يومًا ما سيكون الطريق الوحيد إلى الجنة تعرفه تلك الطيور.. كن كالطير لا بد أن تعاود عشك في النهاية.

كلمات نسخة أبي في الألفية الثالثة.. مازلت أتذكر تلك اللحظات بين أحضانه الدافئة في غيّة الحمام وسط هديله وزقزقة العصافير.. الطريق الوحيد إلى الجنة! لا بد أن لذلك معنى يتعلق باللغز.. هذه النسخة من أبي تعرف وسيلة الخروج من هذا الجحيم! كيف ذلك؟ وهو لم يعايش اللاشعوريين ونظامهم بطن الحوت؟ مؤكد أنه أدرك زمن الإنترنت المظلم وتوقع ما سيكون في المستقبل.

الطيور! نظرتُ إلى ملاك الواقف في جواري مستغربًا متسائلًا:

- هل وجدت شيئًا يستحق يا يونس؟

- ملاك! هل تتذكر آخر مرة رأيت فيها طيورًا في السماء؟

- على حد علمي لم أرى أي منها منذ أصبحت بطن الحوت في وضعها القانوني المُعلن.

- حتى مع اختراقك لنظامهم بذلك الجهاز.

- نعم يا يونس.

- تعال معي.

خرجنا سريعًا من شقة مرجان وملاك لا يفهم.. هرعت

إلى تلك الغيّة المهجورة فوق بنايتنا راكضًا على الدرجات.. وصلت لاهثًا تتابع أنفاسي بينما ملاك ما زال في الدور الثالث من البناية.. بالطبع بطنه الكروية تبطئه.. القمر يتوارى خلف سحب كثيفة لا تغادر السماء أبدًا.. رياح عاصفة تكاد تقتلعني من مكاني وترميني نحو مصير مجهول.. البرد قارص كالعادة.. وقفت للحظات فاقدًا الذاكرة عائدًا لذلك الشاب المتوحّد.. تعجبت من وجودي في هذا المكان.. أمامي مرآة متكسرة تعكس صورة قريني ذو العينين البيضاوين يراقبني.. فجأة عاد كل شيء كما كان.. بُنيت الجسور الإلكترونية من جديد.. تذكرت.. لقد وصل ملاك.. جهاز مرجان المخترق في جيبه.. همست له غاضبًا:

- اللعنة على بطنك يا ملاك.

- عليك أن تلازمني يا يونس.. قلت لك هذا كثيرًا.. لا تتحرك بعيدًا عن نطاق الجهاز الضيق.

سكنت الرياح.. اعتدل الجو وانتشرت رائحة ورود الربيع.. اختفت السحب في السماء

و طل القمر بضيائه المنعكسة على وجوهنا.. القرين في المرآة لا يراني.. سخرت منه:

- نومًا هنيئًا أيها المُغَفَّل.

- أخبرني فيما تفكر يا يونس؟

- هنا.. غيّة الحمام.. يكمن شيء هنا سيكون فيه نجاتنا.. لقد اخبرتني نسخة أبي في الألفية الثالثة أن الطريق إلى الجنة

تعرفه الطيور.. الطريق إلى الجنة.. جملة كتبها مرجان بخط يده خلف صورة تجمع يونس المتوحّد مع والده هنا في هذا المكان في آخر مرة تقابلا فيها.. وبما أن الطيور قد اختفت في عالم بطن الحوت فهذا يؤكد المعنى تمامًا.. الطيور تعرف الطريق إلى الجنة.. فمن الطبيعي أن تختفي من الجحيم.. أعتقد أن لهذا مدلول خطير يا ملاك.

- ماذا تقصد؟

- نحن لا نرى من العالم الخارجي عن بطن الحوت غير بعض الألوان.. بعض الاعتدال الجوي.. الشمس والقمر.. الطبيعة في صورتها الحقيقية.. بعض الأغاني والأفلام القديمة على بعض المواقع المحظورة.. لكننا لم نرى شيئًا آخر.. كتلك الطيور مثلا لا نراها في السماء في الحيز الضيق للاختراق.. السؤال هنا: هل فنى العالم الخارجي؟

- سؤال ليس له إجابة يا يونس.. أرجوك.. لا تسمح لعقلك أن يقودك نحو اليأس.

تنهدتُ أفكر.. ترجلت نحو جدار البناية ونظرتُ ناحية السماء متمنيًا النجاة.. خطر في بالي فكرة مباغتة.. نظرتُ إلى ملاك:

- ربما المقصود شيئًا أخر.

- أي شيء.

نظرتُ ناحية الغيّة المُهدّمة.. هرعتُ إليها باحثًا عن المجهول.. أخشاب متناثرة هنا وهناك.. ألواح زيتيّة مرسومة

يبدو أنها تخص موسى الرحّال الفنان التشكيلي.. تفحصتها جيدًا.. رسوم لحيوانات وبشر ومناظر طبيعية.. سيدات عارية ورجال يضعون الحرير على أجسادهن.. في لوحة منهم رسم موسى عدد من الطيور البيضاء تطير نحو بقعة ضوء كالشمس.. توقفت عندها.. طيور بيضاء تطير وسط سواد يملأ اللوحة.. لفت انتباهي تلك اللوحة بالذات.. ربما هي المقصودة.. لففتها.. اللوحة مشدودة على إطار خشبي ومغطاة من الخلف.. أمسكت قطعة من الزجاج المكسور المتناثر وشققت خلفية اللوحة.. صدق حدسي.. عثرت على ورقة مطوية داخل كيس بلاستيكي .. فتحتها ملهوفًا.. تسمرت.. سألني ملاك:

- ما هذه الورقة؟

- آخر عشر آيات من سورة الكهف.

- ما معنى ذلك؟

- موسى الرحّال.. النسخة الحديثة منه.. كان يقرأ هذه الآيات من نفس الورقة رقيّة لإبنه يونس المتوحّد.

تناول ملاك الورقة من يدي.. تفحصها.. مكتوبة بخط اليد.. لاحظ جملة في نهاية الورقة مختلفة عن الآيات.. قرأها:

«مجمع الأديان ٧٤٩»

اختطفت الورقة من يده.. قرأتها مرة أخرى.. همست:

- ما معنى هذه الجملة؟

حينها تذكرت جزء من رقم الشفرة السباعيّة المكتشفة من قبل نظام بطن الحوت للجهاز الأخر الّذي تم تدميره .. ٧٤٩ .. (٧٤٩١٢٢٥).. برقت عينايّ:

- الشفرة الجديدة.. سبب النجاة.. هذا الرقم جزء منها.

- لا أفهم أي شيء يا يونس.

- ليس هناك وقتًا كافيًا الليلة.. كما أنني مرهقًا للغاية.. لنعود أدراجنا ونلتقي في الغد.

- كما ترى.

افترقنا.. وضعت الورقة في الكيس البلاستيكي ودسستها في جيبي.. عدُت إلى حياة الدُّمى.. إلى اللونين الأبيض والأسود.. لمهمة جديدة في عالم الأفاعي.. لكون خالٍ من المشاعر حتى عاد مرجان في تمام الثانية بعد منتصف ليل اليوم التالي.. عادت الألوان والدفء المؤقت ورائحة الورود في ربيع كون أخفاه الشيطان وأعوانه.. انطلقنا بسيارة ملاك الحمراء.. شرحت لملاك كل ما أفكر فيه من احتمالات النجاة من هذا الجحيم المطلق.. برغم أنني لا أفهم الصلة بين مرجان وموسى الرحّال النسخة الحديثة وطريقة الهروب لكنني لا أهتم بالتفاصيل الآن.. صورة في بيت مرجان كُتب عليها (الطريق إلى الجنة) قادتني لغيّة الحمام لورقة مكتوب عليها (مجمع الأديان ٧٤٩) .. القاهرة وجهتنا اليوم.. مجمع الأديان المهدّم في مصر القديمة.. في الطريق جمعت بعض المعلومات عن المنطقة عبر الإنترنت المخترق بجهازنا..

مسجد عمرو بن العاص.. الكنيسة المعلقة.. كنيسة القديسين سرجيوس وواخس.. معبد بن عزرا اليهودي.. تاريخ المنطقة بأكملها.

تحت شمس ساطعة وألوان الطبيعة البراقة وصلنا.. المنطقة شاسعة.. أطلال مهدمّة من الطوب والأعمدة على مدى البصر.. تذكرني بأطلال الكنيسة الصغيرة على أطراف مدينة برمون حيث بدأ هناك كل شيء.

- عن ماذا سنبحث هنا يا يونس؟

- لا اعرف.. لكننا سنبحث على أية حال.

- أخشى أننا نضيع الوقت يا خليلي.

- ليس أمامنا خيارًا آخر.

- حسنًا.. لنفترق ونستكشف تلك الأطلال و نعاود اللقاء هنا بعد خمس ساعات.

همّ ملاك بالابتعاد.. استوقفته متذكرًا

- ملاك.. الجهاز؟

- لا تخف.. المناطق الدينية.. المساجد.. الكنائس.. المعابد.. جميعها خارج نطاق بطن الحوت.. حتى وإن كانت مهدمّة كما ترى.. وجودنا هنا له نفس مفعول جهاز الاختراق.. هذه ثغرة اكتشفها مرجان.

- لا بد أن لذلك معنى.

- الإيمان يُبطل المفعول يا يونس.

ابتعد ملاك.. اخرج رغيفًا من الخبز المحشو بأصابع من الكفتة والتهمه وغاب عن نظري.. نقطة الالتقاء هي سيارته الحمراء..

غرقتُ بعدها في دوامات من الألغاز باحثًا عن مجهول بين تلك الأطلال.. شيء ما يدلني على الطريق.. ترجلتُ بين أكوام من الجدران المهدّمة والطوب القديم الأثري.. حوائط منحوت على بعضها آيات قرآنية.. والبعض الأخر آيات من العهد القديم.. أطلال دينيّة توضح الوجه الحقيقيّ لعالم الشيطان.. مبتغاه الوحيد.. هدم الدين للإنتصار على البشر.. هذا ما جمعه مع كيوبيدو أيضًا.. لطالما كان الدين ووحدانية الله عائقًا لسيطرة كيوبيدو وذويه على البشر.. الآن وقد تهدمت بيوت الله في الأرض تُعلن إمبراطورية الشيطان في نجاح.. عُممت أرض الشيطان من مشارق الأرض ومغاربها ما عدا تلك البقاع الطاهرة.. مازال غير قادرًا على السيطرة عليها بعد كل ذلك الجبروت حتى وهي مهدمّة.. مازالت الملجأ الوحيد منه.

قضيت الخمس ساعات في حيرة.. لازمني الفشل في العثور على أي شيء.. تسلل اليأس إلى نفسي مرة أخرى.. اعتقدت حينها حقًا أن الوقت قد فات وأنه لا يوجد غير ذلك الجحيم للأبد.. لقد فنى العالم الخارجي.. لكن لا.. لا يمكن ذلك لأنني هنا على قيد الحياة.. الوعي الأصلي لي ولمئات الألاف غيري يعني أنهم خارج هذا العالم قابعين تحت تأثير الشيطان كما شُرح لي.. يرتدون نظارات الميتافيرس.. مازال هناك أملًا

للنجاة.

عُدتُ لسيارة ملاك في الموعد المحدد.. جلست في انتظاره تفترسني تلك الألغاز.. تلتهم عقلي.. (مجمع الأديان ٧٤٩) ربما يقصد شيئًا أخر.. مددت يدي وتناولت الحاسوب الإلكتروني المحمول الخاص بملاك.. ولجت على الانترنت اللاسلكي.. كتبت في خانة البحث مجمع الأديان.. ظهر أمامي مواقع محظورة ملونة بالضوء الأحمر.. تصفحتها كلها.. حوالي خمسين مقالة مختلفة تتحدث عن تلك المنطقة الأثرية.. في نهاية تلك المواقع موقع يتحدث عن رواية بنفس الإسم.. (رواية مجمع الأديان) للكاتب فارس مهران.. برقت عيناي.. ربما هذه الرواية هي المقصودة.. غيرت المكتوب في خانة البحث ل (رواية مجمع الأديان)

مقالة واحدة فقط عنها.. فتحتها.. صورة للكاتب مكتوب تحتها (مصادرة رواية مجمع الأديان للكاتب فارس مهران بعد الحكم عليه في قضية إزدراء الأديان)

بحثت عن نسخة من تلك الرواية بصيغة إلكترونية فلم أعثر على أي شيء.. في هذه اللحظة عاود ملاك خاوي الوفاض.. شرحت له ما وجدت.. انحشر في جواري على كرسيه وأخذ مني الحاسوب الإلكتروني مهتمًا.. اجرى بعض البحث ثم كتب شيئًا على ورقة وناولني إياها.. قرأتها: (سوق اللحوم البشرية-عابدين)

- فارس مهران من حسن الحظ له وعيّ أصلي محبوس في شخصية بائع لحوم بشرية في سوق عابدين.

قالها قبل أن ينطلق بسيارته نسابق الزمن.. لم نلاحظ أننا تجاوزنا الحد المسموح به من اليوم.. كنا على اتفاق مسبق بأنني أمام نظام بطن الحوت ونظيري في المرآة أصحو في الخامسة عصرًا تقريبًا كل يوم وأنام في الثانية بعد منتصف الليل.. بين الخامسة والثانية يظهر يونس المتوحِّد بينما بين الثانية والثانية عشر ظهرًا ينشط يونس البرمونيّ الباحث عن طريقه إلى الجنة.. يتبقى فقط خمس ساعات أنامهم فعليًا كل يوم.. الساعة تقترب من الواحدة ظهرًا.. كان علينا التحرك فورًا نحو بيتي في الاسكندرية بالقرب من شاطىء البحر في العجمي حتى نحافظ على خداع بطن الحوت ولكننا انجرفنا نحو ذلك اللغز الجديد.. لغز فارس مهران.

-١٠-

بالقرب من قصر عابدين المهجور توقف ملاك بسيارته.. منذ سيطرة بطن الحوت على العالم لم يعد هناك حاجة لحكومات تنظم الحياة اليومية للبشر وتباشر مصالحهم.. فقط تلك الصور طبق الأصل ذوات العيون البيضاء الحاكمة لكل شيء.. ذلك ما يراه الناس.. حتى أولئك الجنود المنظمين للقواعد العامة الملقبين بشرطة المشاعر تم اختيارهم من ضمن الناس طبقًا لتاريخهم السابق.. فقد يكون أحدهم ضمن أفراد الحكومة المنقرضة وربما لا.. لا أحد يناقش اختيارات الحاكم الخفي.. إبليس.. من لم يره أو يعرفه أحد حتى اللحظة.

انتشرت قوات (شرطة المشاعر) تمشط سوق اللحوم البشرية على غير العادة.. يبدو أنهم يبحثون عن شخص ما يشعر.. من المؤكد أنه هارب من تنفيذ مهمة ما وانقطع عن الانترنت الوسيلة الوحيدة لتتبع اللاعبين أو المواطنين اللاشعوريين.

أصوات الباعة تنادي:

- اللحوم الطازجة.. قرب قرب قرب.. لحم فتاة عذراء لأعلى سعر.

- قرب قرب قرب.. فتى ابيض سمين بأرخص الأسعار.

- على السكين.. قرب قرب قرب.

افترش البائعين بضاعتهم من أناس كالدُّمى ساكنين لا

يعترضون على بيعهم رغم أنهم يعرفون بأنهم مذبوحون لا محالة.. عرايا تلمع أجسادهم بزيوت صناعية تجذب الزبائن نحوهم:

- بكم هذه الفتاة العذراء؟

سأل أحد الرجال بائعًا في جواري.

- قل ثمنك.

- سأدفع كل ما تريد.

- حسنًا هي لك.

دفعها البائع بعيدًا عن فرشته وساعده أحد مساعديه في جر الفتاة المستكينة نحو مذبح قريب.. كبقرة دُفع ثمنها للتو.. وضعت رقبتها فوق قطعة خشبية جاثية.. هوى بساطور حاد فصلها في الحال.. تدحرجت رأسها تحت قدميّ وخرجت نافورة دماء من جسدها الثائر.. ثم بدأوا في سلخ جلدها وعلقوها تقطر دمائها أمام مشتريها:

- اللحم الطازج.. اجلس حتى نقطعها لك.

- لا عليك.. أريدها كاملة وسأقطعها بمعرفتي.

- معك سيارة؟

- نعم على أول الميدان.

كنتُ وملاك في جوارهم متحكمين في مشاعرنا لنبدو كالدُّمى مثلهم.. كدنا نفرغ ما في بطوننا لكننا نجحنا في

السيطرة.. انكشافنا الآن يُضيع كل شيء.. سألنا ذلك البائع فتفرس في وجههي قبل أن يجيب:

- فارس مهران!

- المعلم فارس لم يظهر اليوم في السوق.. ستجدونه في بيته.. العقار رقم سبعين.

- حسنًا.

اربكتنا تلك الجسور الإلكترونية الّتي تُبنى تلقائيًا بمجرد مرورنا بجوار أي أحد .. يرون الألوان تعود بغتة.. ويشتمون رائحة ورود الربيع والأكثر من ذلك يعرفون أنهم مجرد نسخ متكررة وأن هذا العالم ينتمي للشيطان.. لكن هذا الاضطراب سرعان ما يزول لأننا نُسرع الخُطى.. أوقفني أحد رجال شرطة المشاعر مرتابًا فيّ.. شغله تلك المشاعر المضطربة الفجائية التّي راودته بمجرد قربنا منه.. امتلئت عيناه بالغضب والكره المباغت.. عرفنا أنه مجرد نسخة بلا وعي أصلي.. سألني:

- إلى أين؟

- ابحث عن بائع جيد لأبيع له أخي.

قلتها مشيرًا نحو ملاك.. نظر ناحيته وعلى حاسوبه الالكتروني المعلق في كتفه:

- آه.. سيخرج لحمًا كثيرًا.. بكم تريد بيعه؟

- كم تدفع؟

ابتلع ملاك ريقه متوجسًا.. أنقذه صافرة انطلقت تشبه صافرة إنذار الحروب.. تحدث الرجل عبر لاسلكي:

- الهدف على أول السوق.

دفعني بقوة متجاهلًا اضطراباته ومعرفته بكونه مجرد نسخة:

- هيا.. أسرع الخطى أيتها الدُّمية اللعينة.

ابتعدنا.. همس لي ملاك:

- لنفترض أنه اشتراني يا يونس.

- كنتُ سأركض بجهاز مرجان فينساك.. فكر قليلًا أيها السمين.

ركضوا جميعًا خلف رجل يهلل على أول السوق:

- اتركوني.. لن أقتل زوجتي.. اتركوني.

همست لملاك:

- مازال العشق يؤرق كيوبيد وخططه مع إبليس.

- نعم يا خليلي.

وصلنا إلى العنوان المكتوب على الانترنت إلى نسخة الوعي الأصلي الخاصة بفارس مهران.. العقار رقم ٧٠ بالقرب من ميدان سوق اللحوم البشرية.. بناية يغطيها السواد ومرسوم على واجهتها أفعى ضخمة بيضاء ككل البنايات في هذا العالم.. أعلام ترفرف بشعار بطن الحوت فوق البناية.. صوت

الموسيقى السيمفونية يعود من جديد.. توقفنا.. نظرتُ إلى ملاك متعجبًا.. منذ استخدامنا لهذا الجهاز الجديد فُصل العالمين ببراعة.. عالم أبيض وأسود وعالم ألوان.. عالم موسيقى اللعبة خلفية له طوال اليوم وعالم طبيعي تسمع فيه ما تشاء عبر المواقع المحظورة.. عالم جبري وعالم من اختيارك.. إنها المرة الأولى الّتي يتداخل فيها العالمين.. تلك الموسيقى السيمفونية لا تنتمي لعالم الألوان.. سألت ملاك:

- ما معنى ذلك؟

- لا وقت لدينا.. ندعو الرب أن نجد مبتغانا هنا.

دفعني سريعًا نحو الداخل.. ولجنا و صعدنا درجات السلم.. الدور الثالث.. خبطات متتالية على الباب حتى فتح لنا كهل في الستين من عمره.. نظر إلينا مضطربًا.. كأن سيل من الذكريات تنهمر على عقله.. عرفته من صورته على الموقع الاخباري الوحيد الّذي كتب عن روايته المصادرة.. امتلأت عيناه بالدموع هامسًا:

- يونس موسى الرحّال البرمونيّ.

كمن قذف لي طوق نجاة استثنائي على حين غرة.. تنهدت:

- أتعرفني؟

- تعال.

جذبني نحو الداخل.. اغلق الباب بعدما دخل ملاك أيضًا.. ترجلنا نحو غرفة في منتصف صالة البيت.. مررنا على قطع

بشرية متناثرة من جثث على مناضد جانبية.. صناديق زجاجية ممتلئة بسائل شفاف تحوي قطع بشرية مماثلة.. رأس فتى صغير.. لسان.. عينين.. أذنين.. ذراع.. قدم.. عضو جنسي ذكري.. نهد أنثى.. متحف بشريّ في تلك الغرفة حولنا.. أرضيتها خشبية ملطخة بدماء قديمة متجلطة وجدرانها مدهونة بدماء رائحتها نفاذة.. كرسي مصنوع من الجماجم البشرية جلس عليه فارس مهران.. دعانا للجلوس.. تجاهلتُ صورنا طبق الأصل ذوات العيون البيضاء في مرايا جانبية.. جلسنا.. ثلاثتنا خارج مراقبتهم.. يظنون أن ملاك في غيبوبة وأنا نائم وفارس مهران سقط في نوم مباغت.. ذلك ما يروه.. سألته:

- كيف عرفتني؟

تنهد فارس:

- الجهاز الّذي معك يا يونس.

أشعل فارس سيجارته ونفث منها بعمق وملأ صدره المشتعل بذكريات ألهبت قلبه مجددًا:

- لقد زارني مرجان من قبل.. نسختك العجوز وعرفت منه كل شيء.. نحن هنا في عالم الشيطان.. عرفت أن وعييّ الأصلي محبوس داخل نسخة بائع لحوم بشريّة.. عرفت كل شيء يا يونس.. كل شيء.. اختفى مرجان بعدها على أمل أن تعود أنت لتنقذنا.

- أنا؟

- أنت الوحيد القادر على إنهاء نظام بطن الحوت يا يونس.

- اللعنة عليكم جميعًا.. تحملونني مالا أطيق.. كيف أنقذكم؟ كيف؟ ولماذا أنا بالتحديد؟

- لأنك الوحيد في هذا العالم المجبر على دخوله.. جميعنا ولجنا إليه بكامل إرادتنا عبر تقنية الميتافيرس.. جميعنا ننتمي إلى المستقبل وأنت تنتمي إلى الماضي.. الماضي فقط هو القادر على إنقاذ المستقبل.

- غير صحيح.. أبي ينتمي إلى الماضي.. أمي.. شهد.. ملاك.. جميعهم.. لماذا أنا بالتحديد؟

- أبوك وأمك ماتا في زمانهم ومن رأيتهم هنا وعايشتهم مجرد استنساخ لوعي لم يعد له وجود في العالم الحقيقيّ.. أما شهد فلم نعثر على وعيها الاصلي حتى الآن.

- وملاك؟

اقترب مني ملاك حينها وعينيه مغرورقة بالدموع.. ربت على كتفي:

- أنا نسخة فقط يا يونس.. لا أحمل في داخلي الوعي الأصلي لخليلك ملاك.. لقد خدعتك.

- ماذا؟

- لقد مات خليلك ملاك غارقًا في بحر الظلمات.

كمن سقط لتوه في بئر من الأحزان لا قرار له.. صفعني ملاك بما قال.. لم أصدق أبدًا.. هل مات ملاك حقًا؟.. غرق في بحر

الظلمات.. سالت دموعي.. نهش الحزن قلبي بغتة.. خليلي الوحيد في هذا العالم.. من ترعرعنا جنبًا إلى جنب على الحب والمحبة.. اقتربت من ملاك أو بالأحرى نسخته ومددتُ يدي لأمسك خديه باكيًا.. همس ملاك:

- تلك هي الحقيقة يا يونس.. لم يعد هناك وقتًا لاخفاءها ولا لتلك الدموع.

قاطعه فارس:

- كان على كيوبيدو أن يستنسخ وعي صديقك وأمك وأبيك لتكتمل لعبته.. أنتم فقط المنتمين للماضي.. أما ما غير ذلك فجميعنا ننتمي للمستقبل سواء نسخ تحمل وعيًا أصليًا أم لا.. كأنك سافرت بألة سفر عبر الزمن للمستقبل يا يونس.

استطرد ملاك حديثه:

- لحسن الحظ أن نسخي جميعها لم تحمل الغضب والكره.. كأن الإيمان ظل منجانا.. عيوب صناعة من وجهة نظر إبليس.. كأبيك.. كلانا حمانا الإيمان بالله حتى في نسخنا.. بالرغم أننا موتى في عالمنا الحقيقيّ.. هذا ما حدث بالفعل لنسخة والدك في الألفية الثالثة.. رجل ربانيّ مرهف الحس فشل كيوبيدو في مخططه معه.. عاش في عذاب لرقة قلبه حتى قتلته نسخة أمك.

- قتلته؟

- لم ينتحر موسى الرحّال الفنان التشكيليّ يا يونس.. السيدة روح قامت بشنقه في غرفته تنفيذًا لمهمة في لعبة

بطن الحوت.

قاطعه فارس وسط بحر من الألغاز.. استطرد ملاك:

- مصنع الدّمى البشريّ نظام عالمي مملوك للشيطان.. الميتافيرس.. جميعنا هنا لا نقو على الخروج أبدًا لأننا دخلناه بمحض إرادتنا.. جميع النسخ عاجزة عن الفرار.. حتى وإن كان في داخلها الوعي الأصلي.. حتى بعد أن اكتشفنا الحقيقة على يد مرجان لبعض الوقت وأدركنا أننا في عالم إلحادي بامتياز هُدمت فيه بيوت الله ورُفعت كتبه وتحولنا فيه لدُّمى كريهة نعجز عن الهروب.

- هل أنتم موتى في العالم الحقيقيّ؟

- كلا.. جميعنا أحياء يا يونس.

تدخل ملاك شارحًا:

- يونس.. الإنسان ما هو إلا جسد وروح ممنوحة من الرب ووعي أصلي.. البعض يسمونه نفس.. إن مات الجسد ظل الوعي الأصلي عالقًا في عالم البرزخ منتظرًا حساب الرب إلى الجنة أم النار.. إبليس هنا لا يستطيع السيطرة على هذا الوعي الأصلي إلا في الحياة الدنيا أما ما بعد ذلك لا يمكنه ابدًا.. ما يحدث هنا مجرد استنساخ شكلي كأنه يستخدم الملامح العامة للجسد الغائب عنها الروح.. لذلك جن جنونه حينما كانت بعض النسخ تحمل صفات وعيها الحميدة كالعشق والإيمان بالرب.. اعتبرها لغز لا يستطيع حله.. عيوب صناعة كما قلت لك.

همست أفكر:

- الجميع نسخ منها من تحمل وعيّ أصلي محبوس في داخلها.. هؤلاء الأحياء في عالمهم ودخلوا بطن الحوت بإرادتهم عبر تقنية الميتافيرس.. جميع النسخ ذميمة الخلق ما عدا من يؤمنون بالله في حياتهم وإن كانوا بلا وعيّ أصلي.

أصحاب الوعي الأصلي يظل العشق سر استمرارهم مهما حاول الشيطان معهم.. رأسي تكاد تنفجر.

- الفرق بينك وبيننا أنك مُجبر على الدخول .. مُختطف.. أنت وشهد.. من تملكا الشفرة الوحيدة للخروج من هذا العالم.. الفرصة الوحيدة لهدم مخطط الشيطان.

- الشفرة؟ الرواية؟ لماذا قادتني الألغاز إليك؟ هل تعرف شيئًا عن لغز الشفرة السرية؟

- كلنا نعرفها.. لكن عليك أن تعرفها بنفسك.. لن تنجو أبدًا إن اخبرناك.

- ما هذا الهراء.. أنتم مجاذيب بكل تأكيد.

صرخت فيهما في غضب شديد.

- صدقني يا يونس.. عليك أن تكتشف بنفسك طريق النجاة الّذي نعرفه جيدًا ولكننا لا نملك الهروب خلاله أو حتى البوح لك به.. كل ما فعلناه أو فعله مرجان بالخصوص أنه دس ذلك الطريق في سلسلة من الألغاز ليبعد الشيطان عن اكتشاف مساعدتنا لك بسهولة ويمنحك الفرصة الأخيرة للنجاة.

حينها لاحظت أن اللونين الأبيض والأسود ينتشران حولنا.. صورنا في المرآة ترانا بغتة.. يهمسون في آن واحد:

- أنتم قيد الاعتقال.

تعالت الموسيقى السيمفونية.. كمن قذفنا بسيل جارف من ماء بارد.. بهتت قلوبنا بغتة.. نظرنا إلى بعضنا البعض.. صاح ملاك:

- لقد اكتشفوا أمرنا.

- اهرب يا يونس.. اهرب.. روايتي المُصادرة دفنها مرجان في مدفن أبوك.

قالها فارس مهران في أذني قبل أن يدفعنا نحو النافذة.. قفزنا من دون تفكير.. سقطنا في صندوق ممتلئ بالقمامة.. صوت صافرة الانذار يتعالى.. ركضنا قفزًا من صندوق القمامة.. يهرع خلفنا رجال شرطة المشاعر بأعداد غفيرة.. ملاك يركض ببطء فنهرته صارخًا:

- أسرع أيها السمين.

إنهم يقتربون.. نسمع صوت أحدهم في مكبر للصوت:

- لا مفر منا.. سلما أنفسكما.

شاحنة نقل ثقيل تنقل بقايا جثث وعظام بشريّة.. هرعت إلى قيادتها.. ساعدت ملاك على الصعود.. انطلقت بها سريعًا.. سارعت ورائنا عشر سيارات تابعة لشرطة المشاعر.. اقتحمت بها سوق اللحوم البشرية.. سحقت تحت عجلاتها الكثيرين..

من لم يسعفهم الوقت ليفروا بعيدًا.. اتجهت إلى شارع عمومي وزدتُ من سرعتي تاركًا بحر من الدماء خلفي.. صاح ملاك:

- كيف عرفوا بوجودنا والجهاز مازال يعمل؟

- اللعنة على مرجان.

- ما زلنا نتذكر كل شيء يا يونس.. الجهاز يعمل بكل تأكيد.

- ربما عرفوا بوجوده فقط من دون فك شفرته.

- سينجحون عما قريب.. لم يعد هناك مفر يا يونس.. إن أمسكوا بنا فسينتهي أمرك إلى الأبد.. بل ويضيع كل البشر.. ستحال حياتهم إلى جحيم مطلق.. نجاة البشر ومستقبلهم في يدك.

- لا أعرف شيئًا يا ملاك.. لا أملك أي شيء.

- تملك وعيك الأصلي.. الأصل المهدد بالفناء على أيادي نسخ خالية من المشاعر.. فلتنج به.

فتح حينها الباب بعدما ترك الجهاز في جواري وحاسوبه الالكتروني وقفز من السيارة.. رأيتهم يتوقفون ليقبضوا على صيدهم الثمين.. ملاك.. نسخة من صديقي الميت غرقًا.. ستفترسه الأفاعي بكل تأكيد.. ملاك.. دليل يهدم خطط الشيطان.. لا يمكن السيطرة على رجل عرف قلبه الرب في حياته ولو مرة.

لم اتوقف.. انطلقت منتهزًا فرصة انشغالهم بملاك.. لكنني

أعرف أنهم يلاحقونني بكل تأكيد.. الساعة الثامنة مساءًا.. لقد أدركت أن صورتي طبق الأصل لم ترني في الساعة الخامسة كعادتي فساورها الشك.. مر بعض الوقت وغيابي بالأخص يشعرهم بالقلق الشديد.. اقتحمت شرطة المشاعر بيتي في العجمي في تمام السابعة ولم يعثروا عليّ.. أصدر نظام بطن الحوت نشرة بأوصافي وأُرسلت رسائل مهمات إلى كل اللاعبين بجائزة كبرى لمن يعثر عليّ.. ولم يكن من الصعب أن يبلغ عني أحد بائعي السوق.. ربما لمحني أحدهم خارج نطاق الجهاز وعرفني..

أفعى ضخمة تلتف حول الناقلة.. تضطرب عجلة القيادة في يدي.. تنقلب الناقلة.. أزحف خارجها متألمًا.. تتسارع أنفاسي.. برقت عيناي.. تلك الأفعى البيضاء تقترب على ابتلاعي.. حاولت الركض من دون جدوى.. في غمضة عين التهمتني الأفعى وأغلقت عليّ فمها.. ذاك ما كنت أخشاه.. هُدمت كل النظريات في لحظة.. ابتلعتني الأفعي وانتهى أمري.. الوداع.

-١١-

ظلام دامس.. سكون.. رائحة ورود وريحان تتسرب إلى أنفي.. اشتمها بوضوح.. مازلت حيًا.. تحركت.. وقفت متوجسًا.. ضوء يسطع بغتة.. أغلقتُ عينيّ للحظة ثم فتحتها.. رأيته أمامي رأى العين.. أبي.. موسى الرحّال في زيّ راهب قبطيّ كراهب كنيسة برمون الكبيرة.. لم اصدق.. اقتربت منه.. نظر لي مبتسمًا.. همست مذهولًا:

- لا يمكن.

- اقتربت يا يونس.. اوشكت على النجاة.

- -أبي؟ هنا؟ في بطن أفعى بيضاء؟

- ما تظنه جحيم هو الجنة يا يونس.. وما يظنه الناس جنة كان جحيمهم المستعر.

- انا لا افهم أي شيء.

- الله قريب يا بني.. يظن إبليس أنه يسيطر لكن الله له اليد العليا.. هذه الأفعى من جنود الله.. إبليس نفسه لا يدرك ذلك.

- إن كان الأمر كذلك فلماذا لم ينقذني منذ البداية؟

- لأن عليك أن تجد طريقك بنفسك يا يونس.. هذا هو الاختبار.

- الاختبار!

- اقتربت يا يونس.. اوشكت على النجاة.

- أرجوك يا أبي لا تتركني من جديد.

- ليس الآن.. سنلتقي في نهاية المطاف.. ما زال طريقك نحو النور يا بني يفترسه الظلام.. تغلب عليه لتلقاني.

- النورا!

- الجنة.. الطريق إلى الجنة تعرفه الطيور.

سطع ضوء علوي مباغت.. كقرص الشمس في وميضه.. نظرتُ حولي.. حديقة ممتلئة بالورود والرياحين بألوان بديعة.. ألوان! هنا داخل الأفعى يسقط نظام بطن الحوت.. هل ذلك حقيقيّ؟ الألغاز تكاد تفترس عقلي.. طيور ترفرف في كل مكان.. هل تلك هي الجنة التيّ قصدها أبي.. طيور بيضاء تغرد لحنًا يطرب القلب.. راحة مباغتة تجتاحني كمن انتهى عذابه الأبدي للتو وآن له أن يرتاح.. ابتسمت.. تداخل حينها عدة أصوات بشكل متناغم.. تواشيح إسلامية مع أصوات أجراس كنيسة تدق وصوت ترانيم يهودية.. سألته:

- ما هذا يا أبي؟

- كل شيء يُكمل بعضه بعضًا.. كل شيء يقود نحو الآخر.. الواحد لا يمكن تقسيمه.

- الواحد لا يمكن تقسيمه!

كنت مشدوهًا مسلوب العقل مستمتعًا بهذه الحالة.. رائحة ذكية ولحن يُعزف على أوتار قلبي.. تداخل معهم صوتًا اكتملت معه جنتي.. صوت شهد تدندن أغنيها الّتي سمعتها

منها أول مرة تقابلت معها على شاطىء بحيرة تنيس:

- ولقد بكيت على تفرق شملنا،

زمنًا وفاض الدمع من أجفاني،

ونذرت إن جمع المهيمن بيننا،

ما عدت أذكر فرقة بلساني،

هجم السرور عليَا حتى أنه،

من فرط ما قد سرني أبكاني.

بحثت حولي عنها فلم أجدها.. امتلأت الساحة على مدى البصر بطيور متعددة الألوان.. صقر كبير يتجه ناحيتي.. يقترب.. يهمس لي والدي:

- نجاتك يا يونس تُخرج كل زبانية جهنم.. كلما اقتربت يتهاوى عالم الشيطان داخلك.. حذار يا بني.

التقمني الصقر بمخالبه ورفعني عن الارض وطار بي.. ابتعدتُ عن أبي مهللًا:

- أبي.. لا.. أبي.

- الطريق نحو النور يفترسه الظلام يا يونس.. كن حذرًا.

ساد الظلام بغتة.. تركني الصقر فسقطت صارخًا.. ارتطم جسدي بالأرض.. فتحت عينيّ.. تنهدتُ.. نظرتُ حولي.. الجهاز في جواري والحاسوب الالكتروني لم يصبهما شيء.. لافتة صغيرة فوقي.. قرأتها: (مقابر النخيل) وقفت متوجعًا

متعجبًا.. كيف انتقلت إلى الإسكندرية في غمضة عين؟ الأفعى! لا تفسير غير ذلك.. اللعنة.. ما زلت ابحث عن تفسير منطقي لعالم بُني على اللامنطق.. تناولت الحاسوب والجهاز وترجلت مستنشقًا هواءً نقيًا محاولًا الهدوء.. رتبت أفكاري.. جلستُ اسند ظهري على إحدى الجدران شاردًا..

الجهاز! ما زال هذا الجهاز يخترق نظام بطن الحوت.. مازلت أذكر أنني الوعي الأصلي ليونس البرمونيّ.. لم تمحى ذاكرتي.. القمر في السماء كالبدر.. العالم من حولي بالألوان ورائحة ورود الربيع تتسلل إليّ.. اختفى صوت الموسيقى.. ذلك لا يعني أبدًا أنني في مأمن.. هم بالطبع الآن عرفوا كل شيء.. ذلك الجهاز سيتم تدميره عاجلًا أو أجلًا.. لم يعد هناك وقت للتفكير.. حسنًا.. لأبحث عن مدفن أبي.. أخرجت الجهاز الذهبي ونظرت إلى ارقامه السبع السرية.. تذكرت أخر جملة لنسخة فارس مهران:

- روايتي المُصادرة دفنها مرجان في مدفن أبوك.

راهنت على فرصة أخيرة هامسًا:

- رواية مجمع الأديان ٧٤٩.

-١٢-

في قديم الزمان وسالف العصر والأوان قبل الزمان بزمان كان هناك أخوين يتقاسمان العالم في عينيّ أبويهم آدم وحواء.. طمع أحدهما في نصيب الآخر فقتله.. لعنه الله إلى يوم تفنى الدنيا بمن فيها فاتفق مع الشيطان.. الهدف بني الإنسان.. دارت الأزمان والحرب سجال لا تنتهي.. من يغفل تفترسه الأفاعي.

تلك المقدمة لرواية مجمع الأديان الّتي عثرت عليها بجوار جسد أبي المكفن داخل مقبرته.. في الساعات الأولى من الليل كسرت باب المقبرة وولجت إلى داخلها مسلطًا ضوء هاتفي المحمول بعد أن تخلصت من شريحتي بالرغم أنني أعلم أنهم سيعرفون مكانها بأقصى سرعة.. التراب حولي في كل مكان.. بمجرد دخولي وجدت الرواية موضوعة في جوار أبي النائم كأنه يقرأها كل ليلة.. تعجبت كثيرًا من أن جسده ما زال لم يتحلل.. نظرتُ إلى وجهه .. اقتربت منه وقبلتّه من خده هامسًا:

- أعلم أنك مجرد نسخة من أبي.. نسخة جسدية لا تحمل وعيه الأصلي ومع ذلك تحمل صفاته وإيمانه.. أي كان فأنا أشتاق إليك يا أبي.. أشتاق إلى أحضانك.

مددتُ يدي وتناولت الرواية.. ساعات وأنا أقرأها من دون فائدة.. تحكي عن قايين وهابيل وقصة قتل قايين له وتفترض أن قايين هو حليف الشيطان.. ضد المسيح.. الدجال

في الديانة الإسلامية.. وتدور الرواية عن شاب في نهاية الزمان عاش في قرية صغيرة هُدمت فيها المساجد والكنائس والأديرة بأيدي الناس أنفسهم ورحلته للدفاع عن الرب ومقاومة قايين حتى يتغلب عليه في النهاية.

لا أدرى لماذا تم منع ومصادرة هذه الرواية.. أصابني إحباط شديد.. ما قرأته لا يساعد مطلقًا في حل لغز نجاتي من بطن الحوت.. ما علاقة هذه الرواية بأزمتي الحالية؟ هل خدعني مرجان؟ هل تلاعب بي ملاك وفارس مهران؟ هل كل هؤلاء مجرد مساعدين لكيوبيدو ليشفي غليله مني؟ غرقت في دوامات الأحاجي القاتلة.. تنهدت.. الصبح شقشق.. ضوء النهار يتسلل عبر الفتحة العلوية للمقبرة.. هل اتخلص من الجهاز واعاود لشقتي؟ جل ما يفعلونه هو جرجرتي لحديقة الإنسان والعفو عني بعدها لأنني احمل الوعي الأصلي ليونس ومن ثم أعيش للأبد في جحيم كيوبيدو.. أأستسلم هكذا من دون حتى أن أفهم؟ مددتُ يديّ وفتحت الحاسوب الالكتروني لملاك.. كنتُ قد تخلصت من الشريحة الموصلة بالانترنت داخله اعتقادًا مني بمحو مكاني عن نظام بطن الحوت.. احتفظ ملاك ببعض الأغاني على سطح المكتب.. بحثت عن أغنية مدرسة الحب.. أدرتها وأسندت ظهري على الحائط ودندنت معه:

- أدخلني حبكِ سيدتي مدن الأحزان

وأنا من قبلكِ لم أدخل مدن الأحزان

لم أعرف أبداً أن الدمع هو الإنسان

أن الإنسان بلا حزن ذكرى إنسان.

بكيت.. لا يحتمل قلبي ذلك الفراق.. تمنيت أن أراها ولو لحظة واحدة.. شهد الحقيقية الّتي أحببتها في برمون.. جنتي المفقودة.. أجزم بأن ذلك العشق الغارق فيه قلبي هو سبب نجاتي حتى اللحظة.. ابتسمت وسط الدموع.. حينما يفقد الإنسان العشق يتحول لمسخ ذميم ونسخ لا حصر لها عنوانها الكره والغضب تُعلن نهايتها بأياديها.. تنهدتْ هامسًا:

- كم أعشقك يا شهد!

لا أعلم يا حبيبتي إن كانت تلك الألغاز تقود إليكِ أم تقود لخارج بطن الحوت بدونك.. أيستقيم العيش في الجنة من غيرك يا شهد؟ كلا.. قلبي تعتصره الأحزان والمخاوف.. ليس باليد حيلة.. كل الطرق تؤدي إلى الهلاك.. أمسكت الرواية مجددًا.. تصفحتها في يأس شديد مرة أخرى حتى توقفت عند الصفحة الأخيرة منها.. عدد صفحات هذه الرواية (749) صفحة.. قفزت في رأسي هذه الفكرة.. جزء من الشفرة القديمة.. الورقة المكتوبة بخط موسى الرحال الفنان التشكيليّ.. مجمع الأديان ٧٤٩.. ربما يقصد هذه الصفحة.. قرأتها من جديد بكل تركيز.. اللقطة الأخيرة للبطل المنتصر على قايين تدور في مكان ممتلىء بالأشجار حيث يلتقى المالح بالعذب.. برقت عيناي.. رشيد.. يقصد رشيد.. في نفس المكان الّذي قابلت فيه النسخة الحديثة من شهد.. نفس المكان الّذي حكى لي ملاك فيه كل شيء.. لن ابحث عن تفسير الآن.. ليس هناك وقتًا.. وجهتي القادمة رشيد بلد

المليون نخلة.

خرجت من المقبرة والجهاز معي.. ترجلتُ إلى الشارع الخارجي وخطفت أول سيارة قابلتني عنوة من صاحبها الحامل لغضب شديد وكره في عينيه.. عرفت أنه مجرد نسخة.. حطمت رأسه بحجر سميك مبتسمًا:

- لا تخف سيصنعون نسخة أخرى منك.. لا تنزعج.

انطلقت بسيارته الفضيّة نحو رشيد.. صوت الموسيقى السيمفونية يعود من جديد.. العالم حولي يتحول إلى الأبيض والأسود في لحظة ثم يعود للألوان في اللحظة التالية.. أُزيد من سرعتي.. أفقد الذاكرة بين اللحظة وغيرها ثم تعود.. يبدو أنهم على وشك اختراق ذلك الجهاز.. إنها الفرصة الأخيرة.. أمطار غزيرة تباغتني وبرق يملأ عنان السماء.. رعد صوته يرعبني.. أصر على الاستمرار.. مازلت أذكر.. الألوان تحارب معي هذا العالم الكريه وتصر على البقاء وسط هجوم متتالي للونين الأبيض والأسود.. صوت صافرة إنذار حادة تعلو كأنهم قد أعلنوا الحرب العالمية الثالثة ولكن هذه المرة أنا فقط المقصود.. عالم بالكامل يحارب شخص.. يونس موسى الرحّال.. سيارات تظهر خلفي حاملة شعار بطن الحوت (الأفعى البيضاء) بأعداد مهولة تطاردني.. شرطة المشاعر.. حرب منقطعة النظير.. تهتز الأرض من تحتى.. زلزال ضخم تنشق معه الأرض.. تتمزق.. كأن هذا العالم ينهار.. تبتلع الارض سيارات شرطة المشاعر.. انجو بأعجوبة.. يظهر خلفي موجة من طوفان عارم يكاد يبتلع السيارة.. زدتُ من سرعتي

حتى بلغت مائتي كيلومترًا في الساعة.. اقتربت من رشيد.. الطوفان يقترب مني.. أُزيد من سرعتي أكثر وأكثر.. البرق.. صوت فحيح أفعى تشارك صافرة إنذار الحروب.. الموسيقى السيمفونية تعلو.. الألوان ما زالت تكافح.. ذاكرتي كذلك.. أمطار لا تتوقف.. طائرات تلاحقني استمع الآن إلى صوتها.. طائرات شرطة المشاعر.. المكان يقترب.. صوت مذيع عبر مذياع السيارة:

- على جميع البشر داخل نظام بطن الحوت التزام بيوتهم.. فقد أُعلن للتو حالة الطوارىء القصوى.. لا داعي للقلق أيها البشر.. صور المرايا تؤكد أن ما يحدث سقطة عابرة سيتم التحكم فيها سريعًا.

توقفت بالسيارة وركضت ممسكًا بجهاز مرجان بالرغم من اكتشاف نظام بطن الحوت لوجوده.. ركضت هاربًا من ذلك الطوفان القاتل.. الطائرات تُحلق فوق رشيد.. صوت أجش يتحدث عبر مكبر صوت:

- استسلم يا يونس.. استسلم يا يونس.

ركضت أكثر وأكثر نحو الشاطىء.. الأمواج تجتاح الأشجار و تبطئها بعض الشيء.. وصلت للشاطىء.. نظرت حولي.. المسجد المهدّمة مئذنته.. ربما هذا هو المكان الوحيد الآمن مما يحدث في بطن الحوت.. هرعت ناحيته.. مازال المسجد قائمًا رغم تهدم بعض الجدران.. دخلت لاهثًا.. ارتطمت الأمواج بتلك الجدران وتوقفت عن الاختراق.. كأنها مأمورة بعدم الولوج لهذه البقعة الطاهرة.. العالم ينهار خارج هذا

المسجد.. طوفان جارف وطائرات تنتظر اللحظة المناسبة لقنصي وزلازل مرعبة.. صوت يتردد:

- استسلم يا يونس.

صوت أبي يتكرر كمن ينتشلني من الخراب :

- الطريق نحو النور يفترسه الظلام يا يونس.

برقت عيناي بينما التقطت أنفاسي اللاهثة رأيت شيئًا عجيبًا.. مرآة أبي البرمونيّ الفضيّة.. هديته الأخيرة لي قبل وفاته.. مرآة أبي المحترقة مع جثمانه.. اقتربت غير مصدق ما تراه عيناي.. تلمست تلك الصقور المنحوتة على خشبها.. الطريق إلى الجنة تعرفها الطيور.. الآن أفهم.. هذه هي الطيور المقصودة.. الصقور.. تذكرت تلك الشامة على كتف حبيبتي شهد البرمونية على شكل صقر ينظر لها.. طير يعرف الطريق إلى الجنة.. أوشكت على حل تلك الألغاز أشعر بذلك.. امتلأت نفسي بأمل يتزايد.. قلبي ينتفض.. شهد هي جنتي.. تلك الصقور تعرف الطريق إليها.. جميع الصقور تنظر إلى المرآة.. النجاة من هذا العالم هو نفسه الطريق إلى شهد.. الآن أدرك.. إن عالم بطن الحوت لم يُعثر داخله على الوعي الأصلي لشهد.. مرجان وملاك أكدوا ذلك.. ظنوا أنه تم تشفير وجودها ولكن في الحقيقة أنها لم تدخله من الأساس.. كيوبيدو يعشقها وبالتأكيد لن يُعرضها لأذى نفسي داخل ذلك العالم.. يكفيه نسخ خاوية منها تنفذ له مخططه في تجميع كره ومقت متراكم على وعيها الأصلي من يونس.. مني.. نظرتُ إلى المرآة منبهرًا.. كلام أبي أتذكره جيدًا:

- مهما ضاقت بك الدنيا يا بني تذكر أنك رأيت نفسك هنا على حقيقتها.

أبي كان يعرف.. نظرت إلى صورتي في المرآة.. لم تكن بعينين بيضاوين.. رأيت انعكاس طبيعي لي كما أنا.. هناك أيضًا سبع خانات متجاورة أعلى المرآة تشبه السبع خانات في جهاز مرجان.. هل لذلك صلة بالشفرة المخفية؟ هي كذلك.. لذلك أخبر ملاك أن تلك الشفرة هي وسيلتي للنجاة.. استجمع شتات عقلي.. هذه المرآة لا يسكنها كيوبيدو ولا أحد من ذويه.. نعم.. لماذا؟ لأن الرب يحفظها.. خلف المرآة نُحت عليها آية من العهد القديم:

«تَوَكَّلْ عَلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَعَلَى فَهْمِكَ لاَ تَعْتَمِدْ.. فِي كُلِّ طُرُقِكَ اعْرِفْهُ وَهُوَ يُقَوِّمُ سُبُلَكَ»

جانب المرآة كتاب.. رأيته للتو.. ترجلت ناحيته.. هذا الكتاب أعرفه.. قرأته من مكتبة أبي أثناء تلك الفترة الّتي حبستني فيها أمي روح إبان موجة من موجات الطاعون.. كتاب عن المسيح.. ألم يُحرق أيضًا؟ فتحته.. قرأت المقدمة:

حدد المؤرخ اليهودي يوسيفوس موت هيرودس بسنة ٧٥٠ رومانية التي تقابل ٤ ق م، وكون أن يسوع ولد في أيام هيرودس فيكون ولد أواخر سنة ٧٤٩ أو أوائل سنة ٧٥٠ رومانية

الشفرة الأولى.. يالله.. تداعت الأفكار على رأسي.. صوت الطائرات يتزايد.. الأفاعي تتصارع على جدران المسجد من

دون أن تدخله.. صوت فحيحها مرعب للغاية.. إن لم أنج الآن سأظل حبيس ذلك المسجد إلى الأبد.. المقصود بالشفرة الأولى ٢٥-١٢-٧٤٩ هو موعد مقارب لمولد المسيح بالتقويم الروماني.. ذلك هو بكل تأكيد.

- ساعدني يا الله.

الشفرة الثانية.. ماهي؟ تتابع أنفاسي .. أفكر بكل ذرة في عقلي.. توقفت.. شيء ما طرأ على بالي.. تذكرت الورقة الّتي تركها أبي النسخة الحديثة في غيّة الحمام الحاوية لعشر آيات من القرآن سورة الكهف.. كل شيء يكمل بعضه بعضًا.. كل شيء يقود نحو الأخر.. الواحد لا يمكن تقسيمه.. تاريخ ميلاد النبيّ محمد.. عليك أن تعرفه يا بني.. هكذا قالت النسخة الحديثة من أبي.. الصورة تكتمل الآن.. لغزٌ حله تناثر عبر الأزمان.. ٢٠-٤-٥٧١ ستة أرقام.. لا.. لا يمكن أن أكون مخطئًا.. يالله.. ٥٧١ ميلادية.. نعم المقصود رومانية كما كتبت في الشفرة الأولى.. حسبتها.. ٥٧١ ميلادية توافق ١٣٢٤ رومانية.. كتبت الأرقام على شاشة المرآة.. **(1324420)** سبعة أرقام.. قلبي يرتجف.. الأرقام كتبت أيضًا على شاشة الجهاز.. ضوء كثيف ينبعث من المرآة وينتشر حولي.. يجتاح العالم الخارجي.. اختفت الأفاعي والطائرات.. عادت الألوان ثابتة.. اختفى الطوفان وصوت الرعد والخراب.. دوامات ضوئية داخل المرآة.. مددت يدي داخلها فمرت خلالها.. كتمت أنفاسي.. يبدو أنني نجحت.. قفزت بجسدي عبر تلك الدوامات وقلبي يودع عذاباته في عالم تمنيت ألا أعيشه من

جديد.. عالم بطن الحوت.

-١٣-

أمواج عاتية تتقاذفني بين مياهها المضطربة كدوامات تعتصر جسدي.. كتمت أنفاسي مقاومًا الغرق.. حاولت التماسك.. تحت المياه رأيته من جديد.. ذلك الحوت الضخم الّذي هو بحجم الأرض.. وقف يرمقني من دون أن يقترب.. وكأنه يودعني.. كأنه يبتسم لأنني نجوت من بطنه.. هكذا شعرت في هذه اللحظة.. الأمواج تصارعني.. تحرك الحوت وغاب عن نظري.. كنتُ حينها أُقاوم على سطح المياه.. شمس ساطعة تملأ سماء صافية.. هدأت الأمواج بغتة.. التقطت أنفاسي ونظرت حولي.. على مقربة مني شاطىء لجزيرة ممتلئة بالأشجار كأنها غابة وسط البحر مترامية الاتساع.. سبحت نحو الشاطىء.. كلما اقتربت كلما تعالى صوت طبول بإيقاع رتيب.. إنها نفس الصوت الّذي استمعت إليه فوق سفينة ملاك قبل غرقها.. اقتربت.. زحفت نحو رمال الشاطىء.. وقفت لاهثًا.. جزيرة الشيطان.. هذه هي الجزيرة إذًا.. ربما أكون أول بشري ينجح في الوصول إليها بمجهوده.. سبقتني شهد مختطفة.. شهد!

ترجلت نحو الغابة.. صوت الطبول يتعالى.. أمامي طريق واسع ممهد بين الأشجار.. الرمال تحت قدمي ليست مشبعة بمياه بحر الظلمات.. كلا.. تنضح بلون أحمر.. مددت يدي ولمسته.. اشتممته.. إنها دماء مختلطة.. يالله.. همست:

- أعوذ بك أيها الرب من الشيطان.

توغلت في ذلك الطريق.. تغوص قدماي في رمال الدم.. رائحة حريق.. تقدمت متوجسًا.. انتهى الطريق الممهد ليصب في ساحة واسعة محاطة بالأشجار.. على مدى البصر طرق مختلفة كلها تصب في هذه الساحة.. مرايا تحاوط هذه الساحة.. تقدمت بينها.. لم أرى فيها صور بعيون بيضاء كما في عالم بطن الحوت.. كلا.. رأيت حروبًا ومجازرًا تدور.. طائرات تُلقي قذائفها وأناس يموتون وتتناثر أشلائهم في كل مكان.. حروب بسيوف تارة وبأسلحة نارية تارة أخرى.. عربات وسيارات ودبابات.. مررتُ بين تلك المشاهد متوترًا.. هذه المرايا تطل على المستقبل.. أدركت ذلك.. في هذه اللحظات يحمل وعيي الأصلي كل ما رأيت.. كل ما عايشته النسخ الأخرى في عوالمهم المتوازية.. أعرف هتلر وموسوليني.. أعرف الحرب العالمية الأولى بمجرد رؤية بعض اللقطات المصورة منها.. الحرب العالمية الثانية.. مقاطع أخرى لأناس يذبحون أنفسهم قرابينًا للشيطان.. عمليات قتل واغتيالات متفرقة في كل أنحاء الأرض.. هذا غير المشاهد الاباحية المتعددة على بعض المرايا.. يتداخل صوت الحروب والقذائف وصرخات الناس مع آهات جنسية متواترة ممتزجة مع صوت الطبول بحرفية شديدة.. من خلف المرايا ظهر عدد غفير من كائنات عجيبة ظننتهم في البداية قرود.. لكن ما أن اقتربوا مني بعيون جاحظة مترقبين متعجبين نجاتي حتى أدركت أنهم أناس كالبشر.. لكن أجسادهم مشعرة بأكملها كالقرود.. كانوا عرايا لا يغطيهم غير تلك الشعور الكثيفة.. رجالًا ونساءًا.. صوت يناديني:

- يونس موسى الرحّال.

التفت حولي.. لم أعثر على مصدر الصوت.. تكرر مرات ومرات.. اخترقت زحام هؤلاء الناظرين المتفحصين لي.. في لحظة واحدة ابتعدوا ليشكلوا دائرة كبرى خلفهم المرايا.. كنتُ أنا في منتصفها بمنتهى الدقة.. الطبول يتعالى صوتها.. شخص خلفي يناديني:

- يونس.

التفت إليه.. تفحصت وجهه.. برقت عيناي.. إنه والدي موسى الرحّال.. تمالكت نفسي.. تراجعت للخلف ساخرًا:

- لن تخدعني مرة أخرى.. لا يمكن أن تكون أنت أبي.

- أحييك على ذكائك يا يونس.. أحييك على إيمانك فلولاه لما كنت هنا الآن.

حينها تبدل وجهه.. بوجوه متتالية.. ملاك.. فارس مهران.. طارق زيدان.. والعديد من الوجوه المختلفة التّي عرفتها أنا أو أحد نسخي في عوالمهم .. نظرتُ إليه في تحدي شديد.. ثبت على وجه لا أعرفه.. رجل وسيم مفتول العضلات.. شعره يقطر دمًا.. الكحل حول عينيه.. يرتدي زيًّا أسود.. اقترب مني مبتسمًا ومد يده ليصافحني:

- مرحبًا يا يونس في أرض الشيطان.. لأعرفك بنفسي.

قاطعته:

- كيوبيدو.

ضحك عاليًا وضحك جميع الناس الشبيهة بالقرود حتى رفع يده إشارة لهم بالصمت.. نظر في عينيّ:

- ليس هناك من يُسمى كيوبيدو يا يونس من الأساس.

- من أنت؟

- أنا قايين.

- قايين؟

- هل تعلم يا يونس أنني أعاني الوحدة هنا في هذا المكان منذ قديم الزمان؟ .. اعلم أن كثير من الألغاز والأسئلة التّي تحتاج لإجابات واضحة تدور في رأسك.. سأخبرك بها.. تعال يا يونس.

نزعت ذراعي من يده بحدة.

- أين شهد؟

ربت على كتفي متجاهلًا:

- لتعرف القصة أولًا.

ترجل أمامي يتحدث متأثرًا:

- أنا قايين أو في قصص أخرى قابيل.. الإبن الأول لأبي أدم.. أب كل البشر.. لذلك عليك أن تعرف أننا أخوة مهما حدث بيننا.. تذكر ذلك يا يونس.. أنا عاشق قديم.. عشقت من كانت لأخي هابيل.. هابيل.. من حصل على كل شيء.. حنان الأب والأم .. رضا الرب.. والعشق.. لذلك قتلته يا يونس.. قتلته

لأنج بحبي.. أنت تعرف جيدًا أن العشق لا يمكن التخلي عنه.. فعلت كل شيء من أجلها ولكنها في النهاية رفضت حبي.. نبذتني وهجرتني بمجرد أن عرفت بقتلي لهابيل.. خرجتْ هائمًا على وجههي في الصحراء ملعونًا حتى قابلت إبليس.. لم تعد الدنيا حينها تسوى شيئًا في نظري يا يونس.. كل ما أردته هو الانتقام.. الانتقام من الجميع.. اجتمعت رغباتي مع أهداف إبليس.. منحني الكثير والكثير.. صرتُ من يومها نظيره الإنسي.. أعيش في شباب كما تراني الآن منذ آلاف السنين وسأستمر هكذا حتى النهاية.. ذلك هو الاتفاق.. أن يمنحني الخلود .. لكن شرطه الوحيد أن ابقى هنا في هذه الجزيرة طوع أمره.. هنا في أرض الشيطان مع هؤلاء الجن حولك.. لا خروج من هنا إلا بعلامات.. وقت يجهز له منذ القدم.. المرايا والسيطرة على الناس وعمليات القتل المتتالية من أعمال الشيطان.. نظام بطن الحوت أو لعبة بطن الحوت عبر تقنية الميتافيرس هي الفخ الّذي سيقع فيه الجميع يا يونس.. نظام الميتافيرس هو المحطة الأخيرة الّتي تسبق ظهوري .. تسبق عودتي إلى عالم البشر من جديد أعيش وسطهم واسمع هتافاتهم بحياتي.. الانتقام .. بل والأكثر من ذلك أنهم سيسجدون لي.. كان هذا الوعد الإبليسي كفيلًا برد شرف ضاع يوم هجرتني حبيبتي.. سأنتقم من الجنس البشري كله.. لم يكن هناك شيء ينغص عليّ غيرك.

- أنا؟

- أنت يا يونس تحمل الوعي الأصلي لهابيل.. عذرًا عليّ

أولًا أن أخبرك ما هو الوعي الأصلي.. ليس النفس كما قال لك ملاك في رحلتك.

- أكنت تعرف كل ما دار بيننا؟

- كل شيء.. حتى قدومك إلى هنا.. للعلم.. هذه ليست المرة الأولى الّتي تنجح فيها بالفرار من بطن الحوت.. أقصد ينجح فيها وعيك الأصلي.. سأشرح لك.. الوعي الأصلي هذا يُطلق عليه الشفرة الوراثية **DNA** يتوارثها الأجيال من بعضهم البعض ويُضاف إليها صفات مكتسبة عبر الزمن لكن يظل الأصل غالب لا يُمحى.. الإنسان يا يونس عبارة عن جسد وروح ونفس ووعي أصلي.. بصمة يتوارثها الأجيال.. إن تتبعت شجرة عائلتك ستصل لهابيل يا يونس.. هو جدك الأكبر ومن بعده أدم.. أب البشر أجمعين.. لكل إنسان نفس تُحاسب على أفعالها لكن الوعي الأصلي المتوارث يخزن المعلومات والصفات من جيل إلى جيل.. كل وذكرياته حتى وإن اطلعت عليها كما حدث في رحلتك ومحاولات مرجان فلن تتذكرها بعد انتهاء رحلتك... كل ونفسه..

لكن مافعله مرجان وبناء الجسور الالكترونية جعل الورثة يتواصلون.. لذلك تجد نسخ والدك تعرف الكثير والكثير.. أما أبوك البرمونيّ جلب لك المرآة المكتوب عليها آيات من العهد القديم لأنه قارىء نهم ويعرف الحقائق ويتوقعها لذلك كان يحذرك بطريقته.

خلاصة ما حدث لك أنك من المختارين لخوض تلك التجربة.. انتظرنا سببًا تقاتل العالم من أجله.. شهد.. وفي ليلة

حب وغرام أُختطف وعيك وثُبت وعيها في مكانه.. بعدها خاض وعيك رحلته.. قتل الأزواج.. رحلة ملاك في بحر الظلمات.. نظام بطن الحوت.. كل ذلك رحلة خاضها وعيك فقط .. وللأسف نجحت في النجاة. الإيمان كان منجاك .. هذه التجربة أُجريت على من قبلك وتُجرى على من بعدك.. المختارين حاملين الشفرة الوراثية لهابيل.. كلما تقدم الزمن . كلما قل الإيمان.. كلما كان نجاحهم عسير.. للحق لم نصل حتى اللحظة إلى من يُحبس كليًا في عالم بطن الحوت ولكن نأمل أن يحدث ذلك يومًا ما.. لأقضي ذلك الوعي الأصلي لهابيل المتوارث حتى النهاية حتى لا يكون سببًا في وأد أحلامي.. سببًا في هزيمتي.

- لتكف عن هذه الترهات.. أين شهد؟

- شهد.. بيت القصيد.. أتحبها لهذا الحد يا يونس.. حسنًا لنرى مقدار حبك لها..

للعلم قصة كيوبيدو وعشقه لها لا أساس لها من الصحة.. تلك المعلومات المحملة على نظام بطن الحوت كانت لخداعك ليس إلا.. وجوده كان ضروريًا لحبك الصراع في رحلتك.. حسنًا حسنًا.. اسمع يا يونس.. سأسمح لك بالعودة مع شهد.. ستعود إلى بلدك وزمنك.. سيتحد وعيك مع جسدك وروحك ونفسك.. ستعيش معها حتى نهاية العمر في هناء وحب.. ستنعم بذرية تُنسيك كل ما عايشت.. ستعودا كأن لحظة واحدة قد مضت وتُكملا حياتكما لكن بشرط واحد.

- أي شرط؟

- تسجد لي يا يونس.. تتخلى عن إيمانك من أجل عشقك.. هيا يا يونس هي الفرصة الأخيرة.

تعالت الطبول.. سجد الناس أصحاب الشعور الكثيفة لقايين.. نظر في عينيّ مترقبًا.. زادت صرخات الناس في حروب المرايا.. تعالت الآهات الجنسية.

- مازالت خيوط اللعبة في يديّ يا يونس.. يمكنني تدمير وعيك للأبد.

اقتربت منه متخذًا قراري.. نظرتُ إليه في تحدي.. أيقنت أنني في وضع قوة.. وصولي إلى هنا بالتحديد يمكنني من الانتصار.. صوت أبي يتردد بأية العهد القديم:

«تَوَكَّلْ عَلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَعَلَى فَهْمِكَ لاَ تَعْتَمِدْ.. فِي كُلِّ طُرُقِكَ اعْرِفْهُ وَهُوَ يُقَوِّمُ سُبُلَكَ»

تنهدتُ.. مددتُ يدي في جيبي مخرجًا الورقة الّتي كتبها أبي في نسخته الرسام التشكيليّ.. نزعتها من الكيس البلاستيكي الملفوفة فيه.. قرأتها:

«وَعَرَضنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا

(١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا(١١٠)»

صرخت:

- كل شيء يُكمل بعضه بعضًا.. كل شيء يقود نحو الآخر.. الواحد لا يمكن تقسيمه.. الله.

هجمتُ عليه.. التحم جسدينا وسط هؤلاء الساجدين.. تصارعنا بقوة قاتلة.. مددتُ يدي في غفلة منه وخلعت عينه اليسرى.. سحقتها في يدي.. صرخ متوجعًا:

- اللعنة عليك يا يونس.. اللعنة عليك يا بن هابيل.

في لحظتها اهتزت الأرض بزلزال قوي تساقطت معه الأشجار.. برقت عينا قايين واحمرت.. صرخ:

- لن تكون الأخير يا يونس.. سيأتي من يسجد غيرك.. لن يتركني الشيطان.

تحركت الشمس من مكانها كأنها تسقط كقذيفة ناريّة.. صوت ارتطامها بالمياه كقنبلة ذرية قُذفت للتو.. انهارت المرايا من حولي.. هرع الجن المشعرين صارخين.. اشتعلت الجزيرة كجحيم مستعر تلتهمها النيران.. وقف قايين وسط

الخراب ينظر ليّ بعين واحدة متحديًا.. طيور هائلة الأعداد تهاجم المكان.. طيور لا تُحصى أعدادها.. من بينها رأيت عددًا من الصقور.. اقترب أحدهم ناحيتي ضاربًا بجناحيه رمادًا يتطاير.. انتزعني من تلك الجزيرة الّتي تنهار وتغرق في قاع بحر الظلمات.. كنتُ أطير في الهواء معلقا بين مخالب ذلك الصقر.. اختفت الجزيرة تمامًا.. سقطت دموعي هامسًا:

- شهد.

في هذه اللحظة هاجم عينيّ ضوء شديد.. أغلقتُ عينيّ.. لحظات وتسرب رائحة الورود والريحان إلى أنفي.. فتحت عينيّ.. كنت جالسًا في غرفتي في برمون أمام المرآة.. أرى فيها شهد في غرفتها.. كلانا صورة لبعضنا البعض.. تنهدت مستنشقًا هواء النسيم.. ابتسمت هامسًا:

- شهد.

همست:

- يونس.

خرجت من البيت راكضًا وهي كذلك.. حافيين على جسر الأزمان الملتهب بعشق لا يفنى.. تقابلنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل في ساحة المدينة.. احتضنتها بشوق جارف.. بكيت وبكت.. و اختلطت دموعنا بفرحة اللقاء.. همست لها:

- اشتقت إليكِ يا حبيبتي.

- أحبك يا يونس.

دندنت أغنيتها:

- ولقد بكيت على تفرق شملنا,

زمنًا وفاض الدمع من أجفاني,

ونذرت إن جمع المهيمن بيننا,

ما عدت أذكر فرقة بلساني,

هجم السرور عليَا حتى أنه,

من فرط ما قد سرني أبكاني.

تراقصنا في لذة أشواقنا.. قبلتها.. غبنا في قبلة طويلة لم نفيق منها إلا على صوت أعاد التوجس إلى نفسي من جديد.. صوت الموسيقى السيمفونية يتسلل إلى مسامعي.. تنهدت مدركًا أن اللعبة لم تنتهي بعد.. لن انجح بمفردي في القضاء عليها.. الناس.. على الناس أن تعرف كل شيء.

-تمت بحمد الله-

٢٠٢٣-٥-٨

---

(1) مضيق بحر المجاز:مضيق جبل طارق

(2) بحر الظلمات: المحيط الأطلسي.

هزار (رواية)

عوض أحمد الشنفري (كاتب من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى 2024

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-748-2

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2024/1/488)

بيانات الفهرس الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	هزار
تأليف	الشنفري، عوض أحمد
بيانات النشر	عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2024
عدد الصفحات	62
رقم التصنيف	813.03
الواصفات	الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث
الطبعة	الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

٢٣١٤٩٩٣٦٦٨

المقدمة

تتناول هذه القصة أحداثاً حقيقية مرت بها فتاة سورية واجهت الموت مرات عدة، لكنها استطاعت بشجاعتها الانتصار على الأهوال والمصاعب. تعكس هذه القصة قوة الإرادة والصمود، وتذكرنا بأهمية التمسك بالأمل والتحلي بالشجاعة في مواجهة التحديات الحياتية. إنها قصة ملهمة تستحق القراءة والإنصات لها، لذا دعونا نتشاركها مع العالم لنستلهم القوة من هذه الفتاة وإرادتها الصلبة، ونستخلص الجوانب الإيجابية في الحياة.

تؤكد لنا قصة «هزار» أن الأمل ما يزال موجوداً حتى في أصعب الظروف، وأن القوة الإنسانية قادرة على تحمل الكوارث والمحن والتغلب عليها.. دعونا نقلب صفحات هذه الرواية لنعيش مع هزار قصة هجرتها إلى أوربا.

رحيل موجع

اسمي هزار، وأنا أبلغ ثمانية عشر ربيعاً، لم يكن يهمني في ظلّ الوضع القاتم المُشبع برائحة البارود إلا أن أنهي دراستي الجامعية في التخصص الذي أحبه وهو هندسة التصميم الداخلي. فالجمال هو كل ما أبحث عنه في هذه الحياة.

لم تسعفني أحلامي وأمنياتي في تحقيق حياة مستقرة آمنة، فأوضاع الحي الذي أسكن فيه لا تكاد تهدأ يوماً، والرصاص المتطاير وقذائف الهاون وأصوات جنازير الدبابات التي حولت شوارع الحي إلى حفر ومستنقعات، هي الأصوات السائدة في هذا الحي وفي بقية أحياء الشام.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر عندما قمت متثاقلة إلى غرفتي، وأزحت بقدمي بعضاً من الزجاج المنتشر على أرضية الغرفة، والذي تسببت به رصاصة قناص اخترقت الشباك الصغير في الأمس. ارتديت بيجامة النوم ذات اللون الوردي، وألقيت بجسمي المنهك على السرير. لم أنم ليلة أمس ولا صباح اليوم. اقتناص ساعة من النوم العميق في هذا الجو المشحون بالخوف والرعب والآلام الجسدية والنفسية لهو أكبر أمنياتي التي أبحث عنها في ظل القصف المتواصل بين الجيش السوري والجيش الحر. أردت أن أحظى بلحظة هدوء لالتقاط أنفاسي، وحاولت استجداء ساعة من النوم تعيد لجسمي بعضاً من نشاطه.

لم تمر سوى لحظات حتى بدأ النعاس يداعب أجفاني

ويطبق على رموش عيني ليغوص بي في سبات عميق، لكنني سرعان ما نهضت من فراشي صارخة بهيستريا وذعر بعدما سمعت صوتاً مخيفاً ومرعباً لطائرة «الميج» الروسية التي كانت تطير على مستوى منخفض، رافقتها أصوات البراميل المتفجرة والقنابل الفراغية التي أُلقيت فوق مسجد ومدرسة بالقرب من بيتي الذي زلزلت قوة الانفجار أركانه، وتساقطت كل الصور والمرآيا المعلقة على جدرانه.

خرجت أصرخ مرعوبة، فاحتضنتني أمي وأخذت تدعو عليهم: «الله ينتقم منكم، جننتم ابنتي».. أنفاس لاهثة، وقلوب وجلة، وعيون حائرة، هذه هي لغة الخطاب بيننا في هذه اللحظة، والسؤال الحائر لكل واحدة منا؛ لماذا كل هذا؟!

تذكرت جدتي المسنة التي تسكن في الطابق الأرضي، والتي أحبها مثل أمي، وأنا متعلقة بها منذ طفولتي. كنت كلما مررت بضائقة في هذا الجو المشحون بالعذابات اليومية، أذهب إليها لأرتمي في حضنها وأستمع لكلماتها النورانية التي تنزل على قلبي كالبلسم، فتداوي جراحاتي وآلامي.

ركضنا جميعاً إلى الطابق الأرضي للاطمئنان على الجدة، وكانت صدمتنا شديدة حين رأيناها واقفة سط غرفتها وتقوم بحركات راقصة لا إرادية والدموع تنهمر على خديها كمن أصيبت بمس من الجنون، وبسبب الصدمة والخوف والرعب فقدت النطق أيضاً. احتضناها لنهدئ من روعها، لكنها ظلت تنظر إلينا بعينين حائرتين لا تكاد تعرفنا.

حبي لجدتي ملأ قلبي وجوارحي، لم يدر في خلدي يوماً أن

أراها في هذا الحالة، ولم أتخيل في يوم من الأيام أن تغيب عن ناظريّ.

كانت لي القلب الحنون والحضن الدافئ، وعندما أعود إليها محطمة نفسياً بسبب مشاهد الدمار والقمع الوحشي، وجسمي ينتفض ودقات قلبي تتسارع، كانت تمسح عن قلبي كل هذه المخاوف، وتقضي أغلب أوقاتها على سجادة الصلاة، ولسانها لا يتوقف عن ذكر الله.

كان خوفي عليها يكاد يصل بي إلى الجنون. حملناها بسرعة إلى المستشفى، وكنت مرافقتها لا أتركها لحظة إلا عندما أذهب إلى دورة المياه، حالتها كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وقال الطبيب أن ما تعاني منه هو انقلاب في الأمعاء، وفي اليوم السابع كانت الساعة تقترب من الثانية صباحاً، وصوت جهاز القلب لم ينقطع كالعادة، شعرت بحركة سريعة بين الطبيب والممرضات حول سرير جدتي، وكنت أتابع ما يجري بذهول تام، أوزع نظرات الخوف بين الطبيب وبين جدتي، ثم استدعى الطبيب جهاز تنشيط القلب كمحاولة أولى لإنعاش قلب جدتي، ثم كرر المحاولة ثانية ثم ثالثة ثم ساد سكون مخيف..

سحب الطبيب الشرشف الأبيض وغطى وجهها، نظر إلى ساعته، وتحدث مع الممرضة ليبلغها أن الوفاة تمت الساعة الثانية وعشرين دقيقة صباحاً، ثم نظر باتجاهي وقال لي: «أحسن الله عزاءك يا ابنتي»، وغادر مسرعاً، وحتى تلك اللحظة لم أكن أستوعب الوضع، وكنت واقفة مثل العمود،

أنظر في عيون الممرضات واستنطقهن: «أرجوكن لا تقلن لي ما لا أتحمل سماعه». اقتربت إحداهن مني واحتضنتني وقالت: «وحدي الله يا ابنتي، حاولنا إنقاذها لكن هذه مشيئة الله.. تصبري يا ابنتي»، حركت رأسي يمنة ويسرة: «لا لا.. أنت تمزحين»، تجمعت الممرضات من حولي لتعزيتي، عندها تأكدت أن جدتي ماتت، وصرخت بشكل هستيري، ثم سقطت على الأرض فاقدة الوعي، ولم أفق إلا وأنا على سرير المستشفى صباح اليوم التالي.

جدتي، رحمها الله، لم تمكث في المستشفى أكثر من أسبوع، وحين سلمت الروح إلى بارئها وسط صدمة الأسرة وذهولها، كنت أشدهم ألماً وحزناً على فراقها.

لم أتجاوز الأمر، ودخلت في حالة من الكآبة، وتوقفت عن الأكل إلا ما يسد الرمق، لأكثر من عشرين يوماً.

«لم يعد لنا بقاء في بيتنا في هذا الحي» قال والدي، ثم انتقلنا على الفور إلى حيّ آمن نوعاً ما.

الحي الذي سكنا فيه يبعد عن بيتنا مسافة أربعين دقيقة مشياً على الأقدام. تركنا كل شيء خلفنا، ولم نحمل معنا غير ملابسنا التي على أجسادنا، أنا خرجت بالبجامة.

النجاة من موت محتم

في اليوم التالي اتخذت قراراً لم يكن عقلانياً بالعودة إلى البيت وإحضار بعض الملابس والصور والذكريات التي احتفظ بها في خزانتي، بعد أن أيقنت أن بقاءنا في الحي الجديد سوف يطول لأسابيع أو ربما أشهر، عدت أدراجي عبر الطريق نفسها التي قدمنا منها، إلى أن وصلت إلى الساحة الأمامية لبيتنا، لا أحد من أسرتي كان يعلم بعودتي إلى البيت. عبرت الساحة التي كان يتجمع فيها أهل الحارة أثناء ذهابهم وعودتهم من أعمالهم، وكم كانت صدمتي كبيرة وأنا أشاهد الشوارع وهي خالية من المارة، كأن الحي تحول إلى مدينة أشباح. تقدمت بخطوات سريعة نحو بيتنا، وبنظرات زائغة ودقات قلب هادرة من الخوف والرعب، كهدير الدبابة التي رأيتها تقف في أحد الشوارع بجوار المسجد الذي هدمته طائرة «الميج» وكانت السبب كذلك في موت جدتي.. الطيار لا يعرف أنه قتل جدتي.

دخلت إلى غرفتي، وجلست على طرف السرير أنظر في كل جوانب الغرفة، وكأنني أشاهدها للمرة الأولى، بقيت على هذه الحالة لحظات، وكان عقلي في حالة من السكون وهو يحاول استيعاب الحالة التي وصلت إليها بلادنا.

وبينما أنا جالسة في مكاني على طرف السرير، شعرت أن جسمي لا يقوى على المشي. قمت متثاقلة إلى خزانتي، ووضعت داخل حقيبتي بعضاً من ملابسي والذكريات التي أصبحت جزءاً من حياتي، ثم حملت الحقيبة على ظهري

وهممت بمغادرة البيت، فكانت الصدمة الثالثة لي حين بدأت طائرة مروحية تحوم فوق بيتنا وتطلق وابلاً من الرصاص، إحدى الرصاصات كسرت ما تبقى من الشباك، وأصابت أجمل مزهرية عندي في الغرفة، وهذه المزهرية لها ذكرى خاصة في حياتي.

أيقنت أنني مقتولة لا محالة، ولا أملك أيّ وسيلة اتصال بأهلي، ولا أحد يعلم أين مكاني.. ألصقت ظهري بجدار الغرفة، وأخذت أردد الشهادة على روحي.. تذكرت في هذه اللحظة جدتي التي فاضت روحها البريئة إلى باريها للسبب نفسه الذي أنتظر حدوثه الآن، حالة الخوف والرعب جعلت شريط حياتي يمر أمامي سريعاً، وأخذت أتخيل أنني ملفوفة بذلك القماش الأبيض، وسوف أُحمل بعد قليل إلى جوار جدتي، في هذا الأثناء هدأت روحي قليلاً بعدما تذكرت جدتي، وأنني سأكون معها عند رب كريم حيث لا حرب ولا تشريد.

بقيت ملصقة ظهري على الحائط، ولم أتوقف عن البكاء حتى انتبهت إلى أن المروحية غادرت المكان، وساد هدوء في الحي، توقفت أصوات الرصاص، ولم أعد أسمع أزيز الطائرة. خرجت بحذر أتلفت يمنة ويسرة، وقد أخذ مني الخوف والرعب كل مأخذ، قابلني رجل مسن أثناء خروجي من البيت، وكان يحاول الاحتماء من الرصاص المتطاير، صرخ لأسمعه: «وطي راسك يا ابنتي واركضي بسرعة»، ما كاد الرجل المسن ينهي كلماته تلك حتى مرت رصاصة قناص كادت أن تطير رأسي من مكانه، كانت الرصاصة قريبة جداً

لدرجة أنها أحرقت خصلة من شعري، الله لطف بي، فلو نزلت الرصاصة ملمتراً واحداً لتطاير مخي معها. ركضت باتجاه امرأة تحتضن طفلها، وإذا برصاصة غادرة من قناص مجرم متحجر القلب والفؤاد تستقر في جبين الطفل، ووسط ذهولنا وصراخنا أنا وأم الطفل البريء، سقطت الأم على الأرض فاقدة الوعي، بينما ركضت أنا إلى أحد الممرات الضيقة للاحتماء من الرصاص المتطاير في كل الاتجاهات.

وفي هذه الأثناء ظهر أمامي شابان في سيارة نقل محملة بأغراض بيتهما، كانا متجهين إلى إحدى المناطق الآمنة.

وقفت السيارة ونزل شاب منها وقال لي: «اركبي في السيارة. أنت بنت ما يصح تمشين هكذا وحدك، أنا راح اتصرف»، لم يكن في السيارة متسع إلا للسائق وراكب آخر.

ضحّى ذلك الشاب النبيل من أجلي، وركض بعيداً. ركبت بجوار السائق وتحركت السيارة مسافة قليلة، ثم توقفت بسبب عطل فني، وهكذا كانت السيارة كلما تحركت مسافة بسيطة تتوقف، وكنت أنزل كل مرة أدفع السيارة ثم أركب.. وفي إحدى المرات وأنا أدفع السيارة مرت رصاصة من أمام عيني، وكانت الصدمة الرابعة لي، لقد أنجاني الله من موت محقق. وصلت إلى بيت أقرباء لنا في هذا الحي، وجهي مصفر وملابسي متسخة، كان أهلي في حالة قلق واستنفار في البحث عني، كادت أمي تصاب بالجنون عندما رأتني على هذه الحالة. قصصت عليهم الأحداث التي مرت بي، وجن جنونهم وعنفوني على هكذا تصرف كاد أن يودي بحياتي لولا

لطف الله، أربعة مواقف كان بيني وبين الموت فيها شعرة واحدة، لكن الله سلم.

قرار مصيري

مضت الأوضاع الداخلية في البلاد من سيئ إلى أسوأ، لم يكن هناك بوادر لأي بارقة أمل في نهاية هذا النفق المظلم. قررت العائلة المكونة من والدي وأمي وأختي وزوجها السفر إلى مصر، ومن ثم الهجرة عبر البحر إلى السويد للانضمام إلى أحد أقاربنا هناك. رفضت فكرة السفر رفضاً قاطعاً لسببين؛ الأول عدم رغبتي الابتعاد عن الشاب الذي أحبه، والثاني أنني أعرف أن السويد بلاد باردة وليست فيها حياة مثل التي يعيشها العرب في بلدانهم. حاولت أمي إقناعي بمرافقتهم لكن من دون جدوى، كنت مصرّة على عدم السفر، وكل محاولاتهم لم تنجح معي.

في يوم السفر كنت في غرفتي أقلب بعض الصور وأستعيد بعضاً من الذكريات الجميلة التي لم يعد لها وجود.

فُتح باب الغرفة ودخلت أمي والدموع في عينيها: «هزار يا ابنتي، أنا وأبوك سنسافر اليوم، من سيدير باله علينا إذا لم ترافقينا؟!»، قالت ثم أسهبت في البكاء. هزني بقوة موقف أمي والدموع تسيل على خديها، لم أحتمل هذا الموقف حضنتها وسالت دموعنا بغزارة في موقف لا أقوى على تحمله.

مسحت دموعي وأومأت برأسي بالموافقة، وعلى الفور اتصلت أمي بمكتب السفريات لتحجز مقعداً لي على الرحلة نفسها، فرد عليها الموظف في مكتب السفريات:

«لا توجد مقاعد، الطائرة ممتلئة».

رجته أمي:

«أرجوك حاول.. أرجوك»، وصارت تتوسل إليه.

مرت لحظة من الصمت، وكانت دقات قلب أمي تتسارع وهي تقول بعصبية:

«بعد أن أقنعتها بالسفر معنا لا أجد لها مقعداً على هذه الطائرة.. يا إلهي!».

تركت أمي سماعة الهاتف على أذنها، ولم تكن تسمع غير أصوت ضربات الموظف على حروف الكمبيوتر.. الموظف يحاول من هناك، وهي تدعو الله.

ثم صاح الموظف:

«نعم.. نعم.. يوجد مقعد، هو الوحيد الشاغر في الطائرة».

كادت أمي تطير من الفرح، أما أنا فلم يحرك الأمر فيّ مشاعر فرح تذكر.

«احجزه يرحم الله والديك»، ردت أمي على الموظف، وقالت له أنها سترسل المبلغ الآن لاستلام التذكرة.

وصلنا إلى صالة المغادرين، كانت دهشتنا كبيرة، فالصالة مكتظة بالمسافرين، ورغم اتساعها إلا أنها بدت ضيقة بسبب امتلائها بالحشود. الجميع يقفون بجانب بعضهم بعضاً في طوابير طويلة، الخوف والقلق والتوتر يتصاعد بين الناس وهم ينتظرون بصبر يقطع الأنفاس إنهاء إجراءات

سفرهم والتوجه إلى الطائرة. العيون شاخصة في اللوحات الإلكترونية المعلقة على الجدران لمتابعة مجريات الرحلة.

هذه الرحلات تختلف عن كل الرحلات التي كانوا يستمتعون بها مع نساءهم وأطفالهم أثناء إجازاتهم السنوية. الوضع مختلف في هذه الرحلات؛ الوجوه واجمة، والعيون متحجرة، لا ضحك ولا ابتسامات، حتى الأطفال ملتصقين بأمهاتهم بعد أن كانوا يملؤون الصالات ضحكاً وقفزاً وقهقهات.

لم يبق على وقت دخول الطائرة إلا دقائق، الصالة الداخلية لم تُفتح للآن، والعيون معلقة بشاشة مواعيد الرحلات المغادرة، لا توجد أي ملاحظة تفيد أن الرحلة تأخرت، إذاً ما الأمر؟ لماذا لا تُفتح الصالة ويتجه المسافرون إلى الطائرة؟! لا أحد في المطار يمكنه أن يقدم لك إجابة شافية.

في هذه الأثناء، وبينما الجميع في حالة من الضيق والقلق، ظهر مدير المطار، وأبلغ المسافرين أن السلطات في الدولة المتجهة إليها الرحلة أبلغتهم بعدم استقبال أي طائرة أخرى قادمة من سوريا.

نزل هذا الكلام على الجميع كالصاعقة التي زلزلت كيانهم وأفقدتهم توازنهم؛ ساعات من الانتظار على أمل الهروب إلى دولة أخرى آمنة لبدء حياة جديدة، ثم يأتي هذا الخبر ليصدم الجميع.

حاول مدير المطار تخفيف الصدمة على الناس، وأبلغهم أن الاتصالات لا زالت مستمرة مع تلك الدولة، وطلب منهم

الانتظار.

استمر الناس بالانتظار لأكثر من ساعتين، حتى جاء الخبر السار بأن الطائرة سُمح لها بالمغادرة. صرخ المسافرون وأخذوا يهللون ويكبرون من الفرحة.

ولكن لم تستمر الفرحة كثيراً، لأن مشكلة أخرى ظهرت، فالموافقة بالسماح لهذه الرحلة مشروطة بأن يكون الركاب من النساء والأطفال فقط، أما الرجال فلا يسمح لهم بالمغادرة. هاج المسافرون مرة أخرى، فكيف لهم أن يتركوا نساءهم وأطفالهم من غير رعاية.

تأخرت الطائرة مرة أخرى لساعات، إلى أن تم السماح للجميع بالسفر، وكانت هذه آخر رحلة من سوريا إلى جمهورية مصر العربية.

جلست إلى جوار مقعدي في صالة الانتظار إحدى السيدات، وكانت حضرت برفقة ابنها الذي غادر المطار عندما سمع بعدم السماح للرجال بالسفر، وحين جاءت الموافقة على السفر طلبت مني الاتصال على رقم ابنها ليعود بسرعة إلى المطار ويرافقها، أخذت الرقم واتصلت به وأخبرته أن أمه تطلب منه العودة سريعاً والالتحاق بها.

أمي والمصير المجهول

هبطت الطائرة بنا في مطار القاهرة، وكانت تضمّ المئات من السوريين؛ نساء وأطفال وكبار السن، توجه المسافرون إلى مدينة الإسكندرية على البحر، واستأجروا شققاً وشاليهات للمكوث بها لحين قدوم ساعة الصفر، والهروب عبر إحدى السفن إلى إيطاليا، ومنها إلى السويد، وكان هذا خط الرحلة المتفق عليه.

استأجرت أسرتي شاليهاً، وبقينا فيه لثلاثة أشهر في انتظار خبر أكيد للسفر مع المهربين الذين كانوا يعطونا مواعيد كثيرة، ثم يغيرونها حسب الظروف الأمنية.

حلَّ شهر أكتوبر، وبدأ الجو يتغير، وكذلك بدأت أمواج البحر بالارتفاع، وكان عدد كبير من السوريين في حالة ترقب دائم لاتصال المهربين الذين سوف ينقلونهم عبر السفن إلى وجهتهم. كان السوريون يظنون أن هذه السفن كسفينة «التايتانيك» التي تتوافر فيها كل أسباب الراحة والأمان.

استمر الترقب حتى جاء اليوم الموعود. كان الليل قد انتصف حين أبلغنا أحد المهربين بضرورة الإسراع والنزول من الشاليه للركوب في الشاحنة التي ستقلنا إلى أحد الشواطئ، ومن ثم تأتي قوارب الصيد لتحملنا نحو السفينة الراسية على بعد عشرة أميال من الشاطئ.

كان المشهد مهولاً؛ العديد من النساء والأطفال والرجال بعضهم كبار السن كان يتم رصّهم جميعاً في شاحنة أغنام لا

تتسع لأكثر من عشرين راكباً، فكيف وقد حشر بها ما يزيد على الستين راكباً؟!

كان بجواري ثلاثة شبان، أحدهم كان جالساً على ظهري، ولم أتمكن حتى من دفعه بعيداً، إذا لا يوجد مساحة لأحرك بها حتى يدي، بل لا يوجد مكاناً لوضع إبرة صغيرة. وزيادة في المعاناة تم تغطية الشاحنة بشادر من القماش، كانت تفوح منه رائحة الأغنام، الأمر الذي زاد من إحساسنا بالسوء والاختناق.

أمي التي تعاني من مرض الضغط صارت تصرخ، وكاد يغمى عليها. رددت في نفسي: كم كنت على حق حينما رفضت السفر. كيف وصل بنا الحال إلى أن نعيش هذه الحياة الصعبة؟! ما الفرق بيننا اليوم وبين الحيوانات؟! أطفال يبكون، ونساء تصرخ: «دخيلك يا الله راح نموت»..

انطلقت الشاحنة على طريق وعرة تقود إلى منطقة نائية على البحر، واستمرت هذه الرحلة ثلاث ساعات تقريباً، تصوروا! ثلاث ساعات وأنت محشور بين عدد هائل من الناس، ولا تجد مساحة تمد رجليك فيها.

مرت هذه الساعات كأنها دهر، وكانت هذه أول صدمة يتعرض لها المهاجرون. حين وصلنا طلب منا المهرب النزول والمكوث في غرفة صغيرة من الطين سقط أحد جدرانها. نزل عدد من الركاب في حالة إغماء وانهيار تام، وكان الظلام يلف المكان، والرياح تهب بلا هوادة، والجو يزداد برودة، وأصوات الأمواج تصدر زئيراً كزئير أسود جائعة تستعد للانقضاض

على فرائسها.

«اركضوا بسرعة نحو القوارب»، صاح المهرب بنا، وكانت في يده عصا يضرب بها النساء وكبار السن الذين لم يتمكنوا من الجري بسرعة. الوضع أشبه بإحدى معسكرات النازية، أو بيوم الحشر. ستون شخصاً بين نساء وأطفال وكبار السن يتدافعون في الظلام الدامس، وصوت المهرب يصرخ بنا: «تحركوا.. اسرعوا»، كان يضرب البعض بعصا ليحثهم على سرعة الجري خوفاً من مرور دورية من دوريات خفر السواحل ورؤيتنا ثم القبض علينا.

وصلت الجموع المصدومة والمتعبة إلى القوارب التي لم تكن ترسوا على الشاطئ، وإنما علينا الخوض بين الأمواج للوصول إليها، وكان عمق المياه بجوار القوارب يصل حتى رقابنا.

ركضنا باتجاه القوارب، وكانت صدمتنا الأخرى أن القوارب بعيدة عن الشاطئ، وأبي وأمي لا يجيدان السباحة، بل إن أمي من الممكن أن تغرق في شبر ماء. كيف سيصلان إلى القوارب؟! في هذا الهرج والصياح والصريخ مع اشتداد الظلام فقدت أبي وأمي، وأصبت بحالة هلع رهيبة، فأنا لم أوافق على السفر معهما إلا لأهتم بهما، والآن لا أجدهما إلى جواري.

اشتد الظلام، وكان الناس في حالة من الذعر، وكنت كلما أمسكت بمقدمة قارب أنادي على أبي وأمي، ولكن ما من مجيب. بالطبع من المستحيل أن أركب قارباً إلا حين أتأكد

من أنهما معي.. في هذه اللحظة، شاهدت على مقربة من القارب رجلاً يغرق ويستغيث، قلت لأحد المهربين: «انقذ هذا الرجل.. راح يغرق»، فرد عليّ قائلاً: «اهتمي بنفسك. اصعدي على القارب بسرعة». لم يطاوعني قلبي أن أصعد إلى القارب بينما رجل كبير في السن يستغيث. أفلت يدي من مقدمة القارب التي كنت ممسكة به، وسبحت باتجاهه لأنقذه من الغرق وأساعده ليمسك بالقارب، وكانت صدمتي أن المهرب قال لسائق القارب: «تحرك»، وتركني مع هذا الغريق، وذهب بالركاب نحو السفينة. وصلت إليه وسحبته حتى البر، وكانت المفاجأة التي زلزلت كياني هي أن هذا الغريق لم يكن سوى أبي. كان شبه ميت وفي حالة صدمة أفقدته النطق، لم يكن يتنفس إلا بصعوبة. ضغطت على صدره عدة مرات ونفخت في فمه لإدخال الأكسجين إلى رئتيه حتى بدأ يكح ويخرج الماء من بطنه، ثم صار قادراً على التنفس، لكنه لا يزال في شبه غيبوبة. كانت الصدمة شديدة عليّ وعليه، وجعلتنا في حالة سيئة للغاية، وكل ما كنت أخشاه أن أفقد أبي في أي لحظة.

في هذه الأثناء مرّ بي ذلك المهرب الذي طلبت منه مساعدة الغريق، وبدل أن يقف معي ويساعدني، بعد أن تسبب لي بهذه الكارثة، قال لي: «موتي في ستين داهية». وتركنا وذهب واختفى في الظلام.

أنا وأبي وحدنا على الشاطئ في هذا الليل المظلم والمكان النائي والبرد القارص؛ فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، مع

أب شبه ميت وأم مفقودة لا أدري هل صعدت إلى القارب أم غرقت هي الأخرى.

على الشاطئ مرة أخرى

سحبت أبي، وبصعوبة بالغة أوصلته إلى الغرفة المبنية من الطين، والتي يستخدمها الصيادون فقط، لأحميه من الرياح الباردة التي كانت تشتد بين لحظة وأخرى.

وأنا في خضم هذا الخوف والرعب، وإذا بكلب أسود مخيف يقف بباب الغرفة ينبح في وجهي ويتهيأ للانقضاض عليّ، شعرت أن هذه هي نهايتنا لا محالة، وبدأت أردد الشهادة، بينما والدي مسجّى على الأرض نصف ميت.

استدعى صوت نباح الكلب اثنين من الرجال، وعرفت فيما بعد أنهما من خفر السواحل، كانا في جولة على الشاطئ برفقة الكلب. تفاجأ الرجلان من الوضع، ووجها أسلحتهما إليّ. كنت أصرخ وأرجوهما أن لا يطلقا النار. سألوني: «من أنتِ؟!».

لم أستطع الرد، كنت أصرخ وأستغيث ليساعداني على حمل أبي إلى أقرب طبيب قبل أن يفارق الحياة.

اشتد خوفي من أن يكونا مع عصابة المهربين، وعادا ليخلصا علينا حتى لا نبلغ السلطات بما حدث.

وبينما أنا أستغيث بالرجلين لمساعدتي والتخفيف عني في هذا الوضع المدمر لنفسيتي، إذ أخذا يتهامسان كأنهما يفكران باغتصابي، فتاة حسناء في ريعان شبابها، وفي هذا المكان المقفر وحدها مع أب شبه ميت..

بدأ الشيطان يلعب برأسيهما فاقتربا مني، ومرر أحدهما يديه على شعر رأسي.. أصابتني حالة من الجنون والهيستيريا، وازداد صراخي، وجحظت عيناي.

قلت لهما: «أتوسل إليكما.. اقتلاني ولا تقتربا مني. القتل أهون عندي من أن أتعرض للاغتصاب»، في هذه الأثناء كانت عناية الله حاضرة، واتصل بهما الضابط المسؤول يسألهما عن مكانهما، وحاولا أن يضللا الضابط، حتى لا يأتي إلى هذا المكان، لكن الضابط كان قريباً، فاضطرا إلى إخباره بالحقيقة:

«نعم سيدي. وجدنا أغراباً هنا».

«أين موقعكما؟! أنا جاي».

لحظات ووصل الضابط ودخل عليّ. كنت لا زلت أصرخ، فحاول أن يهدئ من روعي: «لا تخافي، أنا ضابط في الجيش»، قال ذلك وأخرج لي بطاقته العسكرية، وهنا شعرت بالطمأنينة، وأنهم ليسوا مع العصابة، لكنني لا زلت في صدمة شديدة، وقلت للضابط: «ابعد هذان عني»، نظر الضابط إليهما: «ماذا فعلتما لها؟»، أخبرته أنهما حاولا اغتصابي، فصرخ فيهما الضابط: «اغربا عن وجهي الآن».

حاول الضابط أن يفهم مني من أكون، ومن هذا الذي ينام إلى جواري، خفت إن أخبرته بالحقيقة أن يتصل بالدرويات البحرية، ويتم إرجاع كل المهاجرين، ومن ثم حرمانهم من الهجرة، وبالتالي عودتهم للسجون. قلت له: «أنا وأبي كنا نريد أن نهاجر إلى إيطاليا، لكن المهرب أخذ فلوسنا ونصب علينا

ورمانا في هذا المكان».

أمر الضابط الشرطيين أن يحملا أبي، وقال لي: «سوف أساعدكما للخروج من هذا المأزق. لكن لا نستطع الركوب بالسيارة، إذا واجهتنا إحدى الدوريات سوف تكون مسؤولية كبيرة، وسوف اضطر إلى تسليمكما إلى السلطات، والتي بدروها سوف ترحلكما إلى بلادكما».

وأضاف الضابط: «لا بد أن نذهب مشياً على الأقدام، حتى نصل إلى المعسكر».

كانت المسافة من هذا المكان إلى المعسكر تستغرق قرابة الساعتين. مشيت حافية القدمين، ونفسيتي محطمة، وعشرات الأشواك في هذه الطريق الوعرة تخترق قدمي، كنت في حالة من المعاناة لا يعلمها إلا الله.

كنت أرتعش من الخوف، وتنتابني الأفكار المرعبة، من أن هذه المجموعة ربما يريدون أخذي إلى مكان آخر، ومن ثم يغتصبونني ويقتلونني أنا وأبي ويتخلصوا منا، لم تعد لدي ثقة فيهم بعد الذي رأيته من الشرطيين.

بعد مرور ساعتين من الألم الجسدي والنفسي، وصلنا إلى المعسكر الذي يضم قرابة الخمسين عسكرياً. الكل ينظر مستغربا؛ مَن هذه الفتاة وهذا الرجل المحمول إلى المعسكر؟!

أدخلنا الضابط إلى غرفة من القش، وضعت أبي على السرير الوحيد في هذه الغرفة، وغطيته بالبطانيات ليشعر بالدفء، وبقيت إلى جواره حتى الصباح.

وفي الصباح أوصلنا الضابط الشهم الأصيل، الذي سأبقى ممتنة لصنيعه معي، إلى المدينة، حيث عدت إلى الشاليه، واستدعيت طبيباً يعاين أبي، فكتب له بعض الفيتامينات ليستعيد نشاطه، لكن كان لا يزال محطماً نفسياً.

خياران لا ثالث لهما

كانت تسكن إلى جوارنا في الشاليه إحدى السيدات السوريات مع ثلاثة من أبنائها الصغار، هربت من سوريا إلى مصر بعد أن تم اعتقال زوجها، ولا تعرف إن كان في عداد الأحياء أو الأموات، وتنتظر هنا منذ فترة لترتيب هروبها إلى أروبا للالتحاق بمن سبقوها من أهلها.

كان وجودها معي في هذا الوقت كالبسلم الذي خفف عني الكثير من معاناتي، أنا وهي نتشارك الهم نفسه، والمعاناة نفسها.

لا زال القلق والخوف على أمي وأختي وزوج أختي ينتابنا أنا وأبي، ولا أدري؛ هل ركبوا في القوارب؟ أم غرقوا في البحر؟ خمسة أيام في الشاليه كنت خلالها أتنقل بين الغرفة والبرندة، لم أذق طعم النوم، وقتي كله بكاء، ولا شي غير البكاء، والذي زاد من خوفي على أمي خلال هذه الأيام منذ عودتنا للشاليه، أن الأمطار كانت تهطل بغزارة، وأمواج البحر يصل ارتفاعها إلى أكثر من مترين تقريباً، يعني نجاة من كانوا في السفينة بدت لي أمراً شبه مستحيل، فقد كان عددهم أكثر من مائتين وخمسين مهاجراً، في سفينة أقصى حمولتها لا تتجاوز الستين شخصاً.

بعد محاولات، تواصلت مع أخي المقيم في دبي، وتحدث معه وهو لا يكاد يفهم مني كلمة واحدة بسبب بكائي وشهيقي، حاول أن يهدأ من روعي، قال لي: «راح يتوقف

قلبي من الخوف، أرجوك تمالكي نفسك وكلميني». عرف في النهاية ما حصل لنا في هذه الرحلة، وصار يصرخ، وكاد يجن غير مصدق ما يسمعه.

سألني: «كيف حال أبي الآن؟».

قلت: «لا يزال في حالة سيئة. مصدوم ولا يكاد ينطق بحرف».

قال: «سوف أحجز لكما، وتعالا على أول رحلة إلى دبي».

سألته: «كيف نسافر إليك والجوازات مع أمي. ولا أدري هل وصلت إلى إيطاليا، أم لا تزال في عرض البحر، أم غرقت؟»، وعدت للبكاء مرة أخرى.

قال: «سوف أحاول أن أعرف أي أخبار عن رحلتهم وأعود إليك.. المهم اعتني بنفسك وبأبي لحين ما نجد أي طريقة لتخرجا من مصر».

بعد سبعة أيام رنّ هاتفي، وكان أخي يتكلم ويبكي من الفرحة، وبشرني أن أمي وأختي وزوج أختي وصلوا بسلامة الله إلى إيطاليا، بعد رحلة فيها من الأهوال ما فيها. كان هذا الخبر أسعد خبر نزل على قلبي بعد هذه الأيام السوداء من المعاناة، كما ينزل المطر على الأرض الميتة ليعيد إليها الحياة.

قال لي أخي أن أمي سوف تتصل بي غداً لتطمئن عليّ وعلى أبي، وفي اليوم التالي رنّ هاتفي وكانت أمي على الخط، كان البكاء والنحيب هو المسموع بيننا في هذه

اللحظة، قالت أمي: «لما وصلنا ولم نراكما معنا اعتقدنا أنكما غرقتما في البحر»، فأخبرتها بقصتي. كنا نبكي بحرقة على الحالة التي وصلنا إليها.

صدمة أخرى تلقيتها في هذه اللحظة عندما طلبت من أمي أن ترسل جوازاتنا حتى نسافر عند أخي في دبي. وكانت الصدمة أن السفينة عندما كادت تغرق بسبب ارتفاع الموج والحمولة الزائدة، طلب المهرب من الجميع إلقاء كل متعلقاتهم في البحر، وكانت أمي في حالة من التعب والذعر، لم تشعر بأن أحدهم ألقى حقيبتها في البحر، وكان بها كل جوازات السفر.

كدت أفقد عقلي في هذه اللحظة، أحسست كأنه حكم عليّ بالإعدام، لا نقدر أن نرجع إلى سوريا أو نسافر إلى الإمارات أو نعيش في مصر بدون أوراق ثبوتية، وإذا قدمنا لاستخراج جوازات جديدة، سنتعرض للمساءلة والتحقيق.

وبينما أنا أبكي وأندب حظي، بعث الله لي جارتنا في الشاليه لتخبرني أنها تحدثت مع المهرب، وهذه آخر رحلة ستنتجه من الإسكندرية إلى إيطاليا، والسبب أن الأجواء المناخية لن تمكن المهربين من ارتياد البحر من شهر أكتوبر وحتى شهر إبريل القادم. كانت هذه هي الفرصة الوحيدة أمامي لأقرر إن كنا سنبقى في مصر بشكل غير قانوني أو نلتحق بأمي.

بدت حالتي النفسية مدمرة، واتخاذ قرار مصيري مثل هذا القرار يعد بالنسبة لي ضرباً من الخيال، وأبي من سابع

المستحيلات أن يفكر بخوض هذه المغامرة مرة أخرى بعد أن كادت تودي بحياته. كيف لي أن أقنع أبي بالهرب مرة أخرى عبر البحر؟!

تواصلت مع أخي، وبعد نقاش طويل بيننا، قال لي إن هذه هي الفرصة الوحيدة أمامنا، ويجب أن نخرج في تلك الرحلة مع المهربين، وبعد محاولات عدة لإقناع أبي، وافق على خوض التجربة، فأما أن نعيش ونصل إلى أوربا، أو أن نموت في البحر.. ليس لنا خيار ثالث.

صاحب الوجه المشوّه

اقتربت الساعة من منتصف الليل عندما اتصل بنا المهرب وقال لنا: «انزلوا بسرعة»، وكالعادة تكدسنا داخل الشاحنة، ثم غطونا بالشادر حتى لا يرانا أحد من الشرطة أو رجال الأمن، وانطلقت بنا الشاحنة، ولكن المسافة هذه المرة كانت أقرب من المكان السابق.

وصلنا الشاطئ، ثم نزلنا فوق ممشى يشبه الجسر وتحته كانت القوارب التي ستقلنا إلى السفينة. بقيت ممسكة بيد أبي حتى وصلنا إلى داخل القارب من دون أن نخوض في البحر كالمرة السابقة.

ركب كل خمسة عشر شخصاً في قارب، وغطونا بالشوادر، وكاد يغمى على بعضنا بسبب رائحة السمك العالقة بهذه الشوادر. مرت خمسة أيام لم أذق فيها طعم النوم إلا لحظات خاطفة، كنت في حالة إغماء، وكدت أقع على الأرض مرات عدة. كان عدد القوارب خمسة عشر قارباً، حملتنا إلى السفينة الراسية في عرض البحر. عددنا ما يقارب مائتين وعشرين مهاجراً من النساء والأطفال والشباب وكبار السن. وكان قريب من هذا العدد متواجد منذ ثلاثة أيام في السفينة في انتظار هذه الدفعة الأخيرة. بالطبع لم تكن السفينة تتحمل كل هذا العدد، لكن تجار البشر كل ما يهمهم أخذ المبالغ المالية من المهاجرين، بعدها لا يعنيهم الأمر، وصلوا أم غرقوا، فهذا لا يحرك أي إحساس لديهم.

بدا لي أن الصيادين الذين يقودون هذه القوارب واقعون تحت تأثير الحشيش، وكان الظلام يعم المكان، وهم يصيحون: «وين الببور.. وين الببور»؛ يعني السفينة، والناس تصرخ في القارب خوفاً من أن ينقلب بهم بسبب زيادة الحمولة، أو أن يقبض عليهم خفر السواحل، كان مكاني في القارب قريب من المهرب.

أمسك بسكين في يده ووضعها فوق عنقي وقال بصوت مبحوح: «طلعي كل الفلوس التي معك، وإلا والله أنحرك وأرميك في البحر». بعد كل ما مررت به من أهوال وصدمات وكوارث، لم تعد تفرق معي الحياة من الموت، لذا نظرت إليه وقلت: «اسمع، الفلوس مع أختي في القارب الثاني، وصّلني عندها وأعطيك الفلوس»، كان يبدو عليه آثار تعاطي الحشيش، ولم يكن يعي ما يقول أو يفعل، كررت عليه: «بدك تذبحني وترميني في البحر بتكون اختصرت الطريق عليّ، يالله اذبحني وخلصني من هالحياة»..

حين سمع هذا الكلام مني، تركني وأمسك بجارتنا، سحب أحد أولادها وهددها؛ إذا لم تعطه كل ما لديها، فسيرمي الطفل في البحر، فخافت كثيراً على طفلها وأعطته كل ما تملك من مال، وصارت ترجوه: «من شان الله لا ترمي ابني في البحر».

وصلنا للسفينة، ولم تكن سفينة بالمعنى الذي نعرفه، بل يمكن القول أنها قارب كبير، وكنا نحن في حاله يرثى لها، وكان علينا حتى نصعد إلى السفينة التسلق عبر حبل مربوط

في السفينة ومتدلٍّ نحو القارب، وعلى كل واحد أن يتسلّق الحبل، وبمساعدة أحد الأشخاص يتم سحبه إلى الأعلى، ولم يكن الحبل آمناً، وكان من الممكن أن ينقطع في أي لحظة، وفي هذه الحالة يكون السقوط المميت بين القارب والسفينة.

تذكرت أنني خلال طفولتي، كان يعيش في حيّنا شخص وجهه مشوّه بسبب الحروق، وكنت أخاف من مشاهدته، وابتعد عن الطريق التي يمشي عبرها. حين كانت السفينة تصطدم بالقارب خلال محاولة الناس الصعود عبر الحبل، كان أحد الرجال السوريين في السفينة متكفل بمساعدة النساء ورفعهن إلى السفينة، حتى لا يسمح لأحد من المهربين الاقتراب من النساء، وكانت بنيته الجسدية ضخمة، ويمتلك عضلات قوية، حين جاء دوري، أمسكت بالحبل وبدأت في الصعود حتى اقتربت من الوصول، وقبل أن أصل بقليل انقطع الحبل، ولم أشعر إلا بيد تمسك بيدي وترفعني إلى السفينة وأنا في حالة من الذهول غير مصدقة إنني نجوت من الموت.

من كان هذا الشخص الذي أنقذ حياتي؟!

حين استقر جسدي على سطح السفينة، نظرت إلى وجهه، فأدركت أنه هو الرجل المشوّه الذي كنت أخاف منه في طفولتي، ذلك الرجل هو الذي انتشلني من فم الموت بفضل الله.

عرفت فيما بعد أنه ابن تلك السيدة التي كانت تجلس إلى

جواري في صالة الانتظار بالمطار، وطلبت مني أن أهاتف ابنها ليعود إلى المطار بعد السماح للجميع بركوب الطائرة المتوجهة إلى مصر.

تحركت السفينة ببطء، وكان عدد الركاب يزيد الضعف عن حمولتها، ولا توجد بها أي وسيلة من وسائل الأمان؛ لا سترات نجاة، ولا أكل، ولا ماء إلا الشيء اليسير الذي يبقي المسافرين على قيد الحياة ثلاثة أيام أو أربعة.

وخلال رحلة السفينة، كان الدخان يتصاعد بكثافة من غرفة المحركات، وحين يصيح أحد المهربين: «السفينة راح تحترق»، كنا نتوقف بعد أن نقطع مسافة لا تتعدى ميلاً بحرياً، وينزل أحد المهربين ليرش الماء على المحرك بهدف تبريده، وهو يصيح: «السفينة راح تحترق»، ونحن بدورنا نصرخ ونبكي من الرعب، ونتشهد على أرواحنا، فقد كنا نرى أن نهايتنا ستكون بالموت حرقاً أو غرقاً.

كنت في أشد حالات الإرهاق وغبت عن الوعي لمدة يومين، وضعوني في غرفة صغيرة مع النساء، ولما أفقت من الغيبوبة، كنا في حالة خوف وقلق من أن السفينة ستحترق، أو تنقلب بنا، أو تتوقف عن الحركة ويأتي خفر السواحل ويقبضوا علينا..

كانت معي على متن السفينة سيدة طيبة، أولتني الاهتمام والرعاية، وعرفت فيما بعد أنها عمّة الشاب الذي أحبه في سوريا، وما كنت أعرف أنها معي في هذه الرحلة الصعبة.

طائرة فوق رؤوسنا

ترافق مع الأوضاع الصعبة والمتأزمة التي عشناها على ظهر هذه السفينة، ونحن لا ندري هل سننجوا أم ستبتلعنا أمواج البحر، طائرة مروحية كانت تحوم فوقنا وتقوم بتصويرنا. أيقنا جميعاً أن هذه هي النهاية، وأن الطائرة ستتصل بالسلطات للإمساك بنا، وترحيلنا إلى سوريا.

ولا أدري، هل الطيار ومن معه تغافلوا عنا أو رقت قلوبهم لنا، أو أن الله صرفهم عنا. كنا نبكي ونطلب من الله أن يسلمنا. غادرت الطائرة من دون أن يطلب منّا طاقمها التوقف، وواصلنا الإبحار باتجاه المياه الإقليمية الليبية، وما زلت لا أستوعب كيف مرت الطائرة وتركتنا ونحن لم نغادر بعد المياه الإقليمية المصرية، ولم يبق سوى أميال قليلة وندخل إلى المياه الإقليمية الليبية؟!

كان وضعنا بالسفينة في أسواء حالاته، لا أكل ولا ماء، كان المهربون يطعموننا خبزاً يابساً تتطاير الحشرات الصغيرة منه، والماء يكاد يكفي للشرب جرعة أو جرعتين للبقاء على قيد الحياة.

استمرت السفينة في سيرها المتقطع إلى أن دخلنا منطقة تيارات مخيفة، وهاجمتنا الأمواج العاتية، وكان علينا لنتجاوز هذه المنطقة الصمود لأكثر من عشر ساعات، وبدا أنه حتى المهربين غير واثقين من نجاتهم في هذا المكان، وصاروا يقولون لنا: «تشهدوا على أرواحكم».

كان الموج يرفع السفينة ثلاثة أمتار للأعلى، ثم يخبطها باتجاه موجة منخفضة..

سارت السفينة المهترئة عبر هذا الموج والتيارات المرعبة والظلام المخيف، وعلى متنها مائتين وخمسين مهاجراً في حالة صدمة وذعر نتيجة الظروف القاسية التي يتعرضون لها، تشبثت النساء بأطفالهن، وانحشر الناس متلاصقين وعيونهم تنظر للقادم برعب، بينما الأمواج العاتية لا تهدأ، وظلام المحيط يزيد في القلب الوحشة والخوف.

الجميع يعانون من عدم القدرة على الحركة بسبب الازدحام الكبير لأجساد كثيرة انحشرت في مساحة صغيرة، كان الوضع مخيفاً مع رؤية السفينة وهي تكاد تتحطم بين الأمواج العالية، وفي ظل الإرهاق والاجهاد الجسدي والنفسي للمهاجرين.

حشرت جسدي في ركن من السفينة، وتشبثت بعامود من أعمدتها الحديدية، شعرت أنه رغم صلابته سيذوب بين كفيَّ من الخوف، لفّنا الظلام من كل اتجاه، وهدر صوت الموج المخيف، وتعالى صراخ المهاجرين، وبكى الأطفال، ولم يكن بين غرق السفينة ونجاتها غير شَعَرة بسيطة.

ما لا يصدقه عقل أن محرك السفينة لم يتوقف، والسفينة لم تغرق رغم الأمواج العاتية التي تقاذفتها لعشر ساعات متواصلة، هي مدة الإبحار بين هذه التيارات. ولم ينجها سوى عناية الله وحفظه لمن يتشبثون بالرجاء فوقها.

لقد بكت النساء والأطفال، وارتفع الدعاء والابتهال لله أن ينجيهم من غرق محقق، فاستجاب الله لهم.

استمرت السفينة تشق طريقها بين هذه الأمواج العاتية، وبعد عشر ساعات مرت كأنها عشر سنوات من المعاناة والخوف والرعب، وصلنا إلى منطقة هادئة لا موج فيها ولا تيارات، وحمدنا الله على نجاتنا من الغرق، وصرنا نتبادل التهاني بالنجاة ودموعنا تسيل من الفرحة.

موت يهب الحياة

بعد وصول السفينة بالمهاجرين إلى هذا المكان الآمن، توقف المحرك عن العمل، سبحان الله، ولو توقف في منطقة التيارات لكانت انقلبت السفينة بمن فيها. خمسة أيام من الخوف والجوع ونقص الغذاء والماء، ثم ها هي السفينة تتوقف عن الحركة في هذا المكان، ولا يملك المهربون وسائل اتصال، والمسافة المتبقية لنا للوصول إلى أحد شواطئ إيطاليا لا تتجاوز اثنتي عشرة ساعة، ولا حيلة أمامنا إلا انتظار الموت، أو أن يرسل الله لنا من ينقذنا.

بقيت السفينة دون حراك حتى اليوم التالي، وفي الصباح لمحنا قوارب إيطالية على مسافة بعيدة منا، لم نصدق أعيننا، وتجدد الأمل لدينا بالنجاة.

صرنا نصرخ ونصيح ونؤشر بأيدينا وملابسنا حتى تلتفت القوارب لنا، والحمد الله لفتنا انتباهها وأتت إلينا. كانت طواقم القوارب في الأصل ذاهبة للتحقق من البلاغ الذي وصلها مؤكداً أن أحد قوارب الهجرة القادمة من ليبيا غرق في عرض البحر، وأن الجثث طفت على سطح الماء، وكان هذا الحادث هو أول حادث غرق للمهاجرين الذين كانوا يبعدون عنا أميالاً قليلة، عندما وصلت الأخبار إلى أهلي، اعتقدوا أن القارب الذي غرق هو قاربنا، انهارت أمي وأختي وأخي ودخلوا بسبب ذلك المستشفى.. لكن سبحان الله، هؤلاء ماتوا، حتى نعيش نحن.

بعد أن وصل إلينا أحد القوارب الإيطالية، قام أحدهم بالاتصال بالسلطات الإيطالية، وبعد نصف ساعة جاءت مجموعة من القوارب الحربية، ونقلونا من السفينة إلى هذه القوارب السريعة. كان البرد قارصاً في هذا الصباح، بخاصة أن ملابسنا لا زالت مبللة بمياه البحر.

أنزلتنا القوارب على الشاطئ، وما أن لامست أقدامنا رماله حتى سجدنا لله حمداً وشكراً على نجاتنا، وكانت هذه أجمل لحظة في حياتي، لقد وصلت مع أبي بخير وسلامة.

كان هذا الشاطئ قريب من إحدى المناطق الريفية، وبعدما وصلت الأخبار للناس في إيطاليا، أن هناك مهاجرين غرقى وآخرين استطاعوا النجاة، جاء الريفيون والصحفيون إلى الشاطئ لانتظار الناجين. كان وجهي ملطخ بالوحل، وكانوا لطفاء جداً معنا، وأحضروا لنا الأكل والثياب ومياه الشرب..

أخذونا إلى ملعب لكرة السلة، ووضعوا لنا أسرة عليها شراشف بيضاء. كان كل الذي يهمني في هذه اللحظة أن أستحم، فدخلت دورة المياه وفتحت صنبور الماء وأغلقت عينيّ حتى لا أرى حجم الأوساخ والقذارة التي ستنزل من جسمي. وضعت رأسي تحت الدوش لمدة عشر دقائق تقريباً دون حراك، ثم بدأت أفرك جسمي وشعري.

كانت ملابسنا جاهزة، وحين انتهيت من حملة التنظيف تلك، تناولت القليل من الطعام، حيث لم أشعر بالجوع للأكل وإنما للنوم، وألقيت بنفسي فوق السرير ونمت حتى اليوم التالي.

وبعدما صحوت من النوم، كان الناس كلهم نائمين ولا أحد مستيقظ، رأيت كل شيء من حولي باللون الأبيض، فاعتقدت أنني ميتة، وأن هذه أكفاننا، صرت أصرخ بهيستيريا، فنهض الناس مرعوبين، بينما أنا لا أستطيع التوقف عن الصراخ: «نحن أموات.. نحن أموات».

التف الجميع حولي وهم يؤكدن لي حتى أطمئن: «نحن وصلنا بأمان. لا تخافي»، مر وقت قبل أن أستوعب الأمر.

بقينا في هذا الملعب مدة شهر، وهو عبارة عن سجن مفتوح بحراسات أمنية حتى يحين البت في وضعنا، وكنت خلال هذه الفترة أقوم بمحاولات الهرب خارج المكان، وكلما قفزت من مكان في السور كانت الشرطة تمسك بي، فتتم كلبشة يدي وإعادتي إلى الملعب مرة أخرى. منيت كل محاولاتي في الهرب بالفشل.

كنت أريد الخروج من إيطاليا والاتجاه نحو السويد عبر مهربين أيضاً، لكن الأمر لم ينجح، فالنظام في إيطاليا يلزمنا أن نبصم، وإذا بصمنا فهذا يعني أننا لا نستطيع الانتقال إلى أي بلد أوربي، ولهذا السبب كنا رافضين أن نبصم، وكان الإيطاليون يحاولون معنا من غير فائدة.

وخلال هذه الفترة تعرفت على فتيات إيطاليات في الكشافة، وكنا نجلس معاً وصار بيننا صداقة، طلبت مساعدتهن في تهريبي مع أبي، فأحضرن لي ثياب كشافة، وحين ارتديتها صرت كأنني واحدة منهن، وخرجت معهن

من البوابة دون أن ينتبه الحراس لي. وبعد ساعات من هروبي ساعدنني في تهريب أبي أيضاً من خلال زملائهن من الحراس.

مسقط مدينة المحبة

توجهنا بعد ذلك إلى روما، وبقينا شهراً نحاول أن نضبط موضوع التهريب، ثم انطلقنا باتجاه السويد في رحلة استمرت خمس ساعات.

وصلنا إلى السويد وكانت صدمة كبرى لي بسبب أن الجو كان بارداً جداً؛ ودرجات الحرارة تصل إلى ما دون العشرين درجة تحت الصفر، وأنا لا أتحمل البرد.

قمنا بالإجراءات القانونية، وبصمنا، وأعطونا الإقامة كلاجئين في السويد، وأقمنا في قرية عدد سكانها ثلاثة آلاف شخص، وكان عليّ البحث عن عمل، لأنني إذا لم أعمل سأصاب بالجنون.

كانت حياتي خلال السنة الأولى عبارة عن كوابيس يومية، كل يوم أحلم أنني أغرق في قاع البحر.

قررت أن أعالج نفسي بنفسي، ذهبت في رحلة إلى فنلندا على متن سفينة كبيرة حتى أكسر حاجز الخوف من البحر وأتخلص من هذه الكوابيس.

لكنني لم أنجح، وظل الخوف يطاردني، والكوابيس تراودني كل يوم، فقررت أن أخوض رحلة أخرى في البحر، ولكن كانت النتيجة كسابقتها، حيث لم أتمكن من كسر حاجز الخوف في نفسي.

كل يوم أنهض من النوم صارخة بسبب الكوابيس التي تدور

حول الحرب والغرق في البحر وموت جدتي..

بعد سنة من المعاناة بدأت هذه الكوابيس تختفي بالتدريج حتى تخلصت منها كلياً، لكنني لم أكن قادرة على التأقلم للعيش في السويد.

عملت في مطعم للوجبات السريعة، كان يبعد عن القرية التي أسكن بها ساعة بالقطار، وفي كل مرة، يكاد قلبي يتوقف من البرد. كان سبب العمل هو أن أنسى الأحداث التي عشتها.

وفي أحد الأيام، وأثناء ذهابي إلى المحطة لأركب القطار الذي يقلني حتى مكان عملي، أحسست بألم شديد في صدري جعلني أشعر بالقلق، وبدأت دقات قلبي تتسارع على الفور، تذكرت الشخص الذي كنت أحبه في سوريا، حاولت الاتصال به، لكنه لم يكن يرد على الاتصال، وبدأ القلق يساورني، اتصلت بإحدى أخواته وجاءني الخبر الذي جعلني أسقط على الأرض، لقد حدث انفجار في مكان كان بالقرب منه، وكانت إصابته خطيرة، نُقل إلى المستشفى لكنه ما لبث أن أسلم الروح لباريها. كان موته بالنسبة لي فقداناً لكل أمل في الحياة.

تعافيت بعد فترة من هذه الصدمة، وعدت لأمارس حياتي مرة أخرى، ولا زلت متشبثة بالأمل بأن الأيام القادمة ستكون أفضل.

عشت في السويد حتى حصلت على الجنسية السويدية، وكانت هذه أفضل لحظة في حياتي، وعلى الفور أخذت جواز

سفري وقررت السفر إلى مسقط في عام 2017، وكانت هذه الزيارة الأولى لي لعُمان، رتبت بعض الأمور وعدت للسويد، ثم عدت مرة أخرى إلى مسقط في العام 2018.

أقمت في عُمان، وعملت في محل للعطور، ثم بعد فترة فتحت محلاً صغيراً خاصاً بي، ولا زالت أمارس تجارة العطور حتى الآن، ونحن في العام 2023، وأخطط لإحضار أبي وأمي للعيش معي في عُمان؛ هذه البلد الذي أحببته، وأتمنى أن تستمر إقامتي به إلى أن تتغير الأوضاع في سوريا ونعود إلى ديارنا التي تشردنا منها.

رسالة لك أيها العالم

أتذكر اليوم قصة لأحد المهاجرين، كان كتب وصيته عندما هاج البحر قبل أن تنقلب بهم السفينة وتغوص إلى قاع البحر، ووجد طاقم الإنقاذ خلال انتشاله الغرقى رسالة ذلك الشخص الذي لم يُعرف اسمه وقد أذاب ملح البحر ملامحه، بينما ظلت كلماته منقوشة على ورقة مهترئة تحكي قصته وقصة آلاف المهاجرين الذين فرّوا من جحيم الحرب في سوريا والعراق وليبيا، أو من جحيم الاستبداد في مصر، أو من جحيم الفاقة والفقر في أغلب البلاد العربية والإفريقية..

لقد كتب يقول: «**أنا آسف يا أمي لأن السفينة غرقت بنا ولم أستطع الوصول إلى هناك، كما لن أتمكن من إرسال المبالغ التي استدنتها كي أدفع أجرة الرحلة.**

لا تحزني يا أمي إن لم يجدوا جثتي، فماذا ستفيدك الآن إلا تكاليف نقل وشحن ودفن وعزاء. أنا آسف يا أمي أن الحرب حلت، وكان لا بد أن أسافر كغيري من البشر، مع العلم أن أحلامي لم تكن كبيرة كأحلام الآخرين. تعلمين كل أحلامي بحجم علبة دواء للقولون لك وثمن تصليح أسنانك.

أنا آسف يا أمي أنني بنيت لك بيتاً من الوهم، وكوخاً خشبياً جميلاً كنا نشاهده في الأفلام، وكوخاً بعيداً عن البراميل المتفجرة، وبعيداً عن الطائفية والانتماءات العرقية وشائعات الجيران عنا، أنا آسف يا أمي أنني لن أستطيع إرسال الخمسين يورو التي وعدتك بها.

أنا آسف يا أختي أنني لا أستطيع أن أرسل لك الهاتف الحديث الذي يحتوي على (الواي فاي).

أنا آسف أيها الغواصون الباحثون عن المفقودين، فأنا لا أعرف اسم البحر الذي غرقت فيه.

اطمئني يا دائرة اللجوء، لن أكون حملاً ثقيلاً عليك.

شكراً لك أيها البحر الذي استقبلتنا بدون فيزا ولا جواز سفر. شكراً للأسماك التي ستتقاسم لحمي ولن تسألني عن ديني ولا عن انتمائي السياسي. شكراً لقنوات الأخبار التي ستتناقل خبر موتنا لمدة خمس دقائق كل ساعة على مدار يومين. شكرا لكم أنكم ستحزنون علينا عندما تسمعون الخبر.

أنا آسف أنني غرقت».